❁ نفحات من بلاغة القرآن:

❁ لمسات قرآنيّة بين مفهوم التناسب وآيات التدبّر

خالد رضواني

معهد العلوم الشرعيّة . جامعة توبنجن / ألمانيا

Abstract: Despite many works written by Muslim scholars concerning the rhetorical, contextual and semantic *harmony of the Quran* (Arab. *tanāsub al-Qurʾān* or *ʿilm al-munāsabah*/*munāsabāt*), this *Quranic* discipline - in my opinion – is still relatively unknown and remains little researched, particularly in Western scholarship - compared to other areas of Islamic studies. Hoping to be a little contribution in this regard, this article tries to shed some light on the concept of coherence and interconnectivity within the Quranic verses und Chapters. Based on an analytical and inductive investigation of selected examples, this paper gives some summarized conceptual thoughts on this highly interesting topic. As a practical implementation, the second part tries to deal with four Quranic verses of reflection (Arab. *tadabbur*) with regard to the rhetoric-semantic and rhetoric-contextual harmony.

Abstract: (Deutsch) Trotz zahlreicher Werke muslimischer Gelehrte über die rhetorische, kontextuelle und semantische Harmonie des Korans (arab. tanāsub al-Qurʾān bzw. ʿilm al-munāsabah/munāsabāt), bleibt dieses Koranwissnschaftliche Disziplin – in der westlichen Koranforschung - meines Erachtens und vor allem im Vergleich zu anderen Gebieten der islamischen studien – immer noch relativ wenig erforscht, Mit der Hoffnung, einen kleinen Beitrag in diesem Feld zu leisten, versucht diese Arbeit etwas Licht über das Konzept der Kohärenz und Vereinbarkeit innerhalb der Koransuren und Verse zu werfen. Anhand einer analytischen und induktiven Untersuchung ausgewählter Beispiele werden einige zusammengefasste konzeptionelle Gedanken zu diesem hochinteressanten Thema erläutert. Als praktische Umsetzung, versucht der zweite Teil, auf vier Koranverse der Besinnung (arab. tadabbur) in Hinblick auf die rehtorisch-semantische und rhetorisch-kontextuelle Harmonie des Korans einzugehen.

ملخّص:

رغم تعدّد المؤلّفات عند علماء المسلمين حول علم التناسب القرآني، المعروف في كتبهم بعلم المناسبات فإنّ هذا المبحث ـ على ما أرى ـ مازال مجهولا نسبيّا، خاصّة في المجال العلميّ الغربيّ، وذلك مقارنة بمباحث أخرى تدرس ضمن ما يُعرف بالدراسات الإسلاميّة فيها. لذلك تحاول هذه الدّراسة أن تسهم ـ ولو بشيء يسير ـ في إلقاء بعض الضوء على مفهوم التناسق والانسجام، خاصّة في أبعاده البلاغيّة والسياقيّة والمعنويّة الدلاليّة. ويطرح هذا البحثُ أفكارا مختصرة تتعلّق بمفهوم التاسب ومظاهره بالاعتماد على دراسة أمثلة قرآنيّة مختارة. أمّا المبحث الثاني فيمثّل دراسة لمفهوم التدبّر في القرآن، بالاعتماد على تحليل الآيات الأربع الصريحة المتعلّقة به، تحليلا يرتكز على التناسب.

فهرس المواضيع:

مقدّمة موجزة	**5**
1. نظرات في مفهوم التناسب في القرآن الكريم: ﴿علم المناسبات﴾	**7**
صور التناسب ومجالاته دراسته في القرآن الكريم	**12**
التناسب في السورة الواحدة	**13**
التناسب بين السور	**18**
خلاصة مبحث التناسب	**20**
2."القراءة التدبّريّة" و علاقتها "بالتدبّر البياني" للقرآن الكريم	**24**
3. التحليل التناسبيّ لآيات التدبّر	**28**
4. الخاتمة والنتائج المستخلصة	**44**

بسم الله الرحمان الرحيم

﴿ الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ هود آية 1

اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم، وأكرمنا بنور الفهم، وافتح علينا بمعرفة العلم، وسهّل أخلاقنا بالحلم.

مقدّمة موجزة:

إنّ من شرّفه الله بالنظر في كتابه الكريم والتفكّر، فتأمّل معانيه وحِكمه بالتدبّر، ثمّ زيّن كلّ ذلك بتقبّل وفهم الاجتهاد والاختلاف، وإرفاق البحث بالموضوعيّة والإنصاف، قد يصل إلى تحسّس نزْر يسير من أسراره الخافية، ثمّ يجد لكثير من الأسئلة التي تراوده أجوبة شافية. من ذلك مثلا: كيف ميّز الله تعالى القرآن من دون سائر الكتب السماويّة، وعلّى كعبه على كافّة الأفهام والمؤلّفات البشريّة؟ نجد على هذا المعنى في القرآن ـ بعد التأمّل ـ إشارات وفيرة تتجاوز ما يُعرف بآيات التحدّي والإعجاز، وتجمع في دلالتها في هذا الباب بين الإيجاز والاكتناز. فإنّ الله قد زيّن كتابه بألوان شتّى التعظيم، كقوله تعالى في سورة الزمر: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي ٱلأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلاَمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾[1]. ومنها كذلك إخبار القرآن ضمنيّا أنّ بحوث البشر وكتاباتهم حوله لن تُحصى على مدى الزمان عددًا، كقوله تعالى في سورة الكهف: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَاداً لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَداً﴾[2]. ولا عجب في ذلك، مادامتْ معارفه وعلومه ليس لها حدّ، ـ كما أخبر بذلك الرسول ﷺ [لا تنقضي عجائبه ولا يخْلَق من كثرة الردّ].[3]

فإذا تأمّلنا الواقع وجدناه ـ بوجه من الوجوه ـ يشهد على معاني هذه الآيات الكريمة، إذْ تشهد الدراسات القرآنيّة في العقود والسنوات الأخيرة نموّا مطّردا متسارعا، سواء في العالم الإسلاميّ أو الغربيّ، ولا أشكّ أنّ ذلك مستمرّ في قادم السنوات، بل القرون، بل إلى نهاية هذا العالم. ولعلّ من أكثر تلك المباحث تشويقا وإثارة، وأحقّها بمزيد من البحث والتحقيق والنشر، خاصّة عند غير المسلمين، علم أسمّيه في هذه الدراسة ـ من باب الاجتهاد والتأصيل ـ **التناسب القرآنيّ**، وأعني به تحديدًا ما درسه العلماء والمفسّرون في تاريخ علوم القرآن تحت مصطلحات أهمّها: علم المناسبة أو المناسبات في القرآن. وهو علمٌ تتجاوز قيمته وآثاره ما خلّفه لنا العلماء من تبيان بلاغيّ وتفسيريّ حول أسسه وقواعده وطرائق النظر فيه، لتكتسب حسب رأيي قيمة أخرى ذات أبعاد معرفيّة في عصرنا الحاضر.

---

[1] سورة لقمان: آية 27

[2] سورة الكهف: آية 109

[3] البجر المحيط 286/3، تفسير القرآن العظيم لابن كثير 161/4، الكشاف 364/1

معتمدًا على هذه الرؤية، وآملا أن أساهم ـ ولو بنزر يسير ـ في إلقاء الضوء على هذا المبحث، ألج إلى هذه الدراسة الموجزة من هذا الباب، فقد أكرمني الله بالتنعّم بمحاولة اكتشاف بعض شذرات هذا العلم النفيس من علوم القرآن، فشئْتُ أن أشارك بها في مزيد إلقاء الضوء عليه، بما يسّر الله به من بعض الأفكار التي خطرتْ لي أثناء مرافقتي لهذا المبحث الفريد، وكنت قد جمعتها منذ زمن، فعسى الله أ يجعل فيها، إن شاء ، ولو بعضا من سداد النظر والتوفيق، وأرجو أن يجد فيها للمطّلع عليها ولو بعض من الفائدة أو شيئا التحقيق. فإن كان غير ذلك، فإنّي أقنع على الأقل في ذلك بأجر المجتهد ولو كان غير مصيب، سائلا المولى قبل ذلك وبعده إخلاص النيّة، إنّه سميعٌ مجيب.

1. نظرات في مفهوم التناسب في القرآن الكريم:

أنبّه من يطّلع على هذه الدراسة أنّني لا أزعم في هذا السياق تقديم طرح شامل وعميق لموضوع التناسب في القرآن الكريم، أو ما يُعرف عند أهل الاختصاص بعلم المناسبة أو المناسبات القرآنيّة، ذلك أنّ هذا العلم الجليل قد أُشبع بحثاً وتحليلا، وما يزال، عند الباحثين المسلمين قدماء ومعاصرين. و المتتبّع لهذا المبحث القرآنيّ الهامّ في العقود والسنوات الأخيرة، يلاحظ وفرة بائنة للعيان فيما يتعلّق بالكتب والدراسات والأبحاث المخصّصة له. أمّا الدراسات الاستشراقية والإسلاميّة في العالم الغربيّ فمازالت تجهل هذا الفنّ أو ربّما تتجاهله، أو تستصغر أمره، فعدد الأبحاث الخالصة التي تتعلّق بتحرير علم المناسبة وتأصيله داخل الإطار العلميّ الغربي لايكاد يُذكر. أضف إلى ذلك أنّ هذا المبحث حقيق ببحث مستقلّ للنشر بلغات العالم الغربي، تعريفا له وشرحا لفحواه وفوائده. غير أنّ ما ينصبّ عليه الاهتمام في هذا المقام هو تلمّس مفهوم التناسب في حدّ ذاته، لأنّ هذه الدراسة تبحث في ضوءه آيات التدبّر بحثا تطبيقيّا. لكلّ هذه الأسباب مجتمعة، ولأنّ هذا العمل قد يُنشر أوّلا خارج العالم الإسلاميّ، وقد يقرأه غير العرب والمسلمين، فسأكتفي بنبذات مختصرة لأهمّ سمات ومحاور هذا العلم، تساعدنا في فهم اللاحق من محاور هذا البحث:

۞ يعرّف السيوطي هذا العلم فيقول:

"الْمُنَاسِبَةُ فِي اللُّغَةِ الْمُشَاكَلَةُ وَالْمُقَارَبَةُ وَمَرْجِعُهَا فِي الْآيَاتِ وَنَحْوِهَا إِلَى مَعْنًى رَابِطٍ بَيْنَهَا عَامٍّ أَوْ خَاصٍّ عَقْلِيٍّ أَوْ حِسِّيٍّ أَوْ خَيَالِيٍّ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعَلَاقَاتِ، أَوِ التَّلَازُمِ الذِّهْنِيِّ، كَالسَّبَبِ وَالْمُسَبَّبِ وَالْعِلَّةِ وَالْمَعْلُولِ وَالنَّظِيرَيْنِ وَالضِّدَّيْنِ وَنَحْوِهِ، وَفَائِدَتُهُ جَعْلُ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ بَعْضِهَا آخِذًا بِأَعْنَاقِ بَعْضٍ، فَيَقْوَى بِذَلِكَ الِارْتِبَاطُ وَيَصِيرُ التَّأْلِيفُ حَالُهُ حَالُ الْبِنَاءِ الْمُحْكَمِ الْمُتَلَائِمِ الْأَجْزَاءِ[...]"[4]

واتفق عدد كبير من أعلام المفسّرين على أهمّية هذا العلم، وأشار كلّ منهم إلى جانب مخصوص، فنبّه الرازي على أنّ "أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط"[5]، و أشار السيوطي إلى ندرة تناوله هذا العلم في تصانيف التفسير معلّقا "علم المناسبة علم شريف قلّ اعتناء المفسرين به لدقته".[6] أمّا برهان

[4] الإتقان 371/3

[5] نفس المصدر 369/3

[6] البرهان 36/1

الدين البقاعي، الذي يُعتبر إمام هذا الفنّ، فقد أوضح الارتباط القائم بين التناسب والبلاغة وقدّم علم المناسبات في القرآن على أنّه:"سر البلاغة ؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المعاني لما اقتضاه من الحال، وتتوقف الإجازة فيه على معرفة مقصود السورة المطلوب ذلك فيها، ويفيد ذلك في معرفة المقصود من جميع جملها، فلذلك كان هذا العلم في غاية النفاسة، وكانت نسبته من علم التفسير كنسبة علم البيان من النحو."[7]

أودّ أن أسوق ملاحظة علميّة في هذا المقام، وهي أنّ اختياري هذا المصطلح أي "علم **التناسب**" بدلا من "علم **المناسبة**" ـ على اشتهار الأخير بين أهل العلم ـ لم يكُ من قبيل الصدفة أو التلاعب اللفظي، وإنّما ناتج عن تبرير لغوي ومنطقيّ، إذ أنّ المقصود بالمناسبة في أبسط معانيها من خلال فهم المفسّرين، هو الترابط والاتحاد بين آية وآية، أو سورة وسورة، والدارس للذكر الحكيم يخلص بشيء من التدبّر إلى خصيصة قرآنيّة جليّة مفادها أنّ علاقة الترابط بين الآيات والسور والقصص والأحكام وغيرها إنّما انبنتْ على التأثير المتبادل، أو تشارك التأثّر والتأثير، لأنّ القرآن وحدة واحدة ـ كما يرى ابن العربي ـ "ارتباط آي القرآن بعضها ببعض، حتى تكون كالكلمة الواحدة ،متسقة المعاني، علم عظيم".[8] والوزن الصرفيّ الذي يعكس ذلكم التشارك بصفة أكثر وضوحًا، هو ـ على ما أرى ـ "التفاعل" هو صلات التآلف والاتساق بين مكوّنات القرآن الكريم جميعها. وأراني ممّن يميلون إلى تعريف حديث وشامل لهذا العلم، فهو يتعدّى مجرّد استقراء الحكمة من الترتيب المصحفيّ للآي والسور، مؤتلفًا مع أبواب أخرى ضمن البحوث التفسيريّة والبلاغيّة، متنوّعة. وأصدق برهان على هذا الشمول والتنوّع يتمثّل في حقيقة ارتباط كثير من مباحث علوم القرآن بالتناسب، فسواء تعلّق الأمر بالتفسير وارتباطه بالسياق، أو بيان الحكمة ممّا تشابه أو تماثل أو تكرّر من الألفاظ والتعابير والصور القرآنيّة، أو استخراج مظاهر الائتلاف والاختلاف في القصص القرآنيّ، أو دراسة الأشباه والنظائر، أو النظر في فواصل الآي، أو تمحيص الفروق بين القراءات ووجوهها، أم تعلّق الأمر بعلم ترتيب السور[9]، أم بمقاصدها، أم بدراسة الاعجاز البياني والبلاغي، فإنّ مفهوم التناسب والاتساق القرآنيّ، حاضر في جميع هذه العلوم وغيرها، ولا يمكن

---

[7] أسرار ترتيب القرآن 5

[8] البرهان 36/1

[9] يتعلّق علم التناسب بالقول بتوقيفيّة الترتيب المصحفيّ، وقد اختلف العلماء في ذلك، لمزيد النظر يمكن مراجعة الموسوعة القرآنيّة: 339 . 345

للدارس المدقّق الاستغناء عنه. لذلك تناوله بعض العلماء على أنّه فرع من التفسير، أو طريق مساعد عليه، لكنّي لم أعثرْ بينهم على من عدّه شرطا للتفسير. وخلاصة القول أنّ علم التناسب علم اجتهاديّ، نشأ ضمن علوم التفسير، وانفتح بعد ذلك على فنون اللغة، وقد يصلح النظر إليه بصفته دراسة واستقراء مجموع علاقات الترابط بين جميع مكوّنات القرآن، على اختلاف مجالات السياقيّة والنصّية والمعنويّة والبلاغيّة والصوتيّة، وغير ذلك من وجوه التناسق والتكامل.

يخلص الناظر في تاريخ هذا العلم إلى ملاحظات لعلّ أهمّها:

أوّلها أنّ نسبته إلى أبي بكر النيسابوري في القرن الرابع الهجريّ خطأ اشتُهر بين العلماء والباحثين، إلى أن صحّحه الدكتور عبد الحكيم الأنيس في دراسة رائقة له، استنتج فيها بعد تحقيق أقوال العلماء أنّ: "أوّليّة هذا العلم غير واضحة تمام الوضوح إلى حدّ الآن، ولا سيما مع بقاء كثير من مصادر التفسير القرآن مخطوطة بعيدة عن أيدي الباحثين."[10] وقد أشار ابن العربي في هذا إلى عالم مجهول، يُنسب له أوّل كتاب خاصّ بهذا العلم، درس فيه سورة البقرة، غير أنّه بقي غير معروف،"[11] وإذا أردنا اختصار أهمّ محطّات تاريخ هذا العلم، فيمكن الإشارة إلى أنّه بدأ شذرات في عهد النبيّ ﷺ وصحابته، ولا عجب في ذلك، إذ انصرف شغف الرعيل المؤمنين واهتمامهم إلى المعنى قبل المبنى، وذلك لجدّة الوحي القرآني وتفرّد لغته من جهة، ولأهمّية تلقّي أمور العقيدة والعبادات وغيرها بالنسبة إلى جيل فجر الإسلام، قبل التعمّق في تفاصيل الخطاب القرآني، وإلاّ فما تفسير القرآن بالقرآن، كما فعل النبيّ ﷺ مثلا في تفسير الظلم في آية سورة المائدة، على أنّه الشرك بالله، بالرجوع إلى آية لقمان، إلّا الشذرات الأولى لانتشار مفهوم التناسب. وفي مرحلة لاحقة بعد نشأة وتطوّره، بدأ المفسّرون من أمثال الطبري اعتماد منهج الربط بين بعض الآيات في القرن الرابع، وأحسب أنّ تطوّر علوم القرآن والتفسير والبلاغة، وخاصّة تبلور مفهوم النظم كوجه للإعجاز، خاصّة على يد الجرجاني[12] ﴿ت. 471هـ﴾ في القرن الخامس

[10] أضواء على علم المناسبة: عبد الحكيم الأنيس، [مجلّة الأحمديّة، عدد 1432/11، ص 15. 70]

[11] انظر في البرهان والإتقان، نفس الصفحات السابقة، يقدّم الزركشي علم المناسبات إلى الرتبة الثانية، بينما يؤخّره السيوطي العلم السادس والستين من علوم القرآن،

[12] أحدث الجرجاني بنظريّة النظم نقلة في تاريخ مبحث التناسب: خاصّة في كتابه دلائل الإعجاز

الهجريّ، قد أسهم غاية الإسهام في نشأة نهج تفسيريّ تكثّف فيه الاعتماد على التناسب والترابط بين الآيات والسور، فبات مميّزا لتفاسير القرون التالية، انطلاقا من القرن الخامس والسادس، أبرزها تفسير النسفي ﴿ت.510﴾، والزمخشري ﴿ت. 538هـ﴾، وابن العربي ﴿ت. 543هـ﴾[13]، ثمّ تفسير الإمام الفخر الرازي ﴿ت. 606هـ﴾، ثمّ تطوّر ذلك عند أبي الحسن الحرالي المغربي ﴿ت. 637هـ﴾ الذي ملأ تفسيره بالمناسبات، وابن النقيب الحنفي ﴿ت.698﴾. أمّا القمّة العلميّة التي تبوّأها علم المناسبات، فهي تتجلّى لاحقا في القرنين الثامن والتاسع، بظهور علمين لهما الفضل في إفراد هذا العلم بتصنيف مستقلّ، وجعله يستكمل ـ إن جاز التعبير ـ آخر شروط العلميّة، بأن أصبح مدرسة تفسيريّة قائمة، لها مصطلحاتها وقواعدها الخاصّة، لا فقط وسيلة مساعدة على التفسير بمعنى اللطائف أو النكت. فأمّا الأوّل فهو ابن الزبير الغرناطي ﴿ت. 708هـ﴾، فقد ألّف أوّل كتاب مستقلّ وصل إلينا حول ترتيب السور، وبيان ترابط مقاصدها وانسجام معانيها، سمّاه "البرهان في تناسب سور القرآن". أمّا الحائز على قصب السبق في التصدّي لأوّل تفسير تناسبي لكامل القرآن الكريم، فهو بلا شكّ، الإمام البقاعي ﴿ت. 885هـ﴾، الذي شهد له أهل العلم بالرياسة في هذا الحقل والريادة فيه، ذلك أنّه أوّل من تجرّأ على التصدّي لتفسير القرآن كاملا، مع محاولته بيان وجوه ارتباط كلّ آية، أو طائفة من الآي، بسابقاتها ولاحقاتها، وجعل من هذا الأسلوب منهجا مطّردا في كامل تصنيفه المسمّى "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور". لكنّ ولادة هذا النهج الجديد في التفسير، أو قلْ استقلاله بذاته، لم تَكُ يسيرة، فقد جوبهت بالرفض من بعض معاصري البقاعي، ولقي صاحبها في سبيلها قدرا غير يسير من المكائد والمحن. ويرجع ذلك حسب رأيي إلى سببيْن، فمن جهة يعكس هذا صراعا دائما بين التقليد والتجديد، إذ أنّ صاحب الدرر قد قام ـ على نحو معيّن ـ بثورة في مجال التفسير بوضع التناسب أساسا له وقاعدة، بينما كانت حصيلة القرون الأولى من التفسير تتلمّس هذا البعد، وتلجأ إليه في التفسير، خاصّة بعد تطوّر علوم البلاغة كما أشرنا، لكنّها لا تعتمده طريقة كاملة في التفسير. أمّا الدافع الآخر وراء رفض أو تحوّط بعض العلماء من هذا العلم، فيُردّ إلى الخشية من التكلّف في إيجاد الروابط بين الآي، وهي قد تظهر حينا وقد تختفي أحيانا. والرأي عندي، بعد البحث في هذا العلم وتلمّس أقوال العلماء فيه،

[13] يذكر ابن العربي في كتابه سراج المريدين، أنّه ألّف كتابا في هذا العلم، لكنّه أخفاه لعدم اكتراث العلماء به أوّل الأمر،كما يذكر علما ألّف فيه وبقي مجهولا، انظر مثلا: البرهان في علوم القرآن: 36/1

أنّ الأوْلى التوسّط بين الفريقيْن، فلا ينبغي التكلّف في "اختلاق" وجوه للتناسب القرآنيّ، بالمبالغة في التخيّل، أو تركيب ألفاظ القرآن ومعانيه تلبيةً لما تميل إليه نفس المفسّر من بيان وجه التناسق، أو المغالاة في تحميل النصّ ما لايحتمل للغرض عينه، فكلّ ذلك مظاهر مذمومة، تنتقص من نفاسة التفسير وقيمته. لكنّ الحقّ الذي أراه أنّ هذا السبق الذي أحرزه البقاعي في علم التناسب القرآني لم يفقد شيئا من قيمته، وحتّى مع وجود بعض العثرات المذكورة في كتابه، فهو رغم كلّ ذلك فتح بابا لمن لحقه من المتأمّلين، كان موصودًا من قبله. ثمّ إنّ المشتغلين بهذا العلم من أمثال البقاعي قد نظروا إليه باعتباره علما اجتهاديّا توفيقيّا، يبتغي السائر في طريقه تدبّر القرآن، واستكناه أسراره وحكمه، التي من أعظمها الانسجام والاتساق، فهو مأجور على اجتهاده لا محالة، ما سلمتْ النيّة. ويرتبط ذلك كلّه بقناعة العلماء بوحدة القرآن الكريم التي تحكم بتكامل معانيه وانسيابها، وتأدية الآي والسور لتلك المعاني في ترتيب محكم، ذي غايات معنويّة وبلاغيّة وتأثيريّة قابلة للاستقراء والتلمّس.

ولا عجب أن اتخذ علم التناسب بعد ذلك مكانته التي يستحقّ كعلم من علوم القرآن، إذ اعتبره الزركشي ومن بعده السيوطي تناسب الآيات والسور مبحثا مستقلّا بين تلك العلوم. وتوالت بعد ذلك التفاسير الحافلة بالمناسبات، أذكر منها في هذا المقام، كتب أبي السعود ﴿ت.982﴾، والبغوي ﴿ت.1393﴾، وصولا إلى الآلوسي ﴿ت.1270﴾ وتفسيره روح المعاني، وأبي الثناء الأصبهاني ﴿ت. 1386﴾. وامتدّت بعد ذلك شهرة هذا العلم وتنوّعت فنونه وطبع كثيرا من أعمال العلماء المسلمين في القرنين الماضيين، انطلاق من محمد عبده وجمال الدين الأفغاني، ومرورا بسيد قطب ومحمد الظاهر بن عاشور ﴿ت.1393﴾ في تفسيريْهما، ووصولا إلى عصرنا الحاضر، حيث تنهمر الدراسات حول مبحث التناسب بشكل مستمرّ، ويتفنّن الباحثون في مختلف حقول الدراسات القرآنيّة في بيان جمال اللفظ وتناسب السياق وأفانين البلاغة وغير ذلك. ويبرز منهم مثلاً الأستاذ عبد الله دراز في كتابه " النبأ العظيم". لا يتّسع المقام لاستعراض جميع جهود الباحثين المعاصرين في هذا العلم ولكنّ جهودهم

مذكورة مشكورة، وأضحى بفضلها علم المناسبات، ركنا ثابتا في الدراسات القرآنيّة المعاصرة.[14]

صور التناسب ومجالاته دراسته في القرآن الكريم:

تتّسع مجالات البحث عن التناسب في القرآن الكريم وتتنوّع، حتّى لا تكاد تُحصى، خاصّة مع التطوّر الملحوظ الذي تشهده الدراسات القرآنيّة في القرون والعقود والسنوات الأخيرة، وتختلف طرق تقسيم تلك الأبواب بين العلماء والباحثين، ولا أحسب ذلك إلّا زيادة في الفائدة العلميّة. وقد أرتأيت أن أورد تقسيم السيوطي لهذه الأبواب، تعميما للفائدة، فقد لخّص في كتابه "أسرار ترتيب القرآن" مجالات البحث عن وجوه التناسب بين الآيات والسور، مشيرا إلى اعتماده عليها في كتابه "أسرار التنزيل"، على هذا النحو، شارحًا:

"وإنّ ممّا ألفت في تعلقات القرآن كتاب "أسرار التنزيل" الباحث عن أساليبه، المبرز أعاجيبه، المبين لفصاحة ألفاظه وبلاغة تراكيبه، الكاشف عن وجه إعجازه، الداخل إلى حقيقته من مجازه، المطلع على أفانينه، المبدع في تقرير حججه وبراهينه، فإنه اشتمل على بضعة عشر نوعًا:

الأول: بيان مناسبات ترتيب سوره، وحكمة وضع كل سورة منها.

الثاني: بيان أن كل سورة شارحة لما أُجْمِلَ في السورة التي قبلها.

الثالث: وجه اعتلاق فاتحة الكتاب بخاتمة التي قبلها.

الرابع: مناسبة مطلع السورة للمقصد الذى سيقت له، وذلك براعة الاستهلال.

الخامس: مناسبة أوائل السور لأواخرها.

السادس: مناسبات ترتيب آياته، واعتلاق بعضها ببعض، وارتباطها وتلاحمها وتناسقها.

السابع: بيان أساليبه في البلاغة، وتنويع خطاباته وسياقاته.

الثامن: بيان ما اشتمل عليه من المحسنات البديعية على كثرتها،

كالاستعارة، والكناية، والتعريض، والالتفات، والتورية، والاستخدام واللف والنشر، والطباق، والمقابلة، وغير ذلك، والمجاز بأنواعه، وأنواع الإيجاز والإطناب.

التاسع: بيان فواصل الآي، ومناسبتها للآي التي ختمت بها.

[14] يمكن الاطلاع على مؤلّفات هؤلاء الأعلام في قائمة المصادر والمراجع.

العاشر: مناسبة أسماء السور لها.

الحادي عشر: الألفاظ التي ظاهرها الترادف وبينهما فرق دقيق.

الثاني عشر: بيان وجه اختيار مرادفاته ولِمَ عُبِّرَ به دون سائر المرادفات.

الثالث عشر: بيان القراءات المختلفة، مشهورها، وشاذها، وما تضمنته من المعاني والعلوم، فإن ذلك من جملة وجوه إعجازه.

الرابع عشر: بيان وجه تفاوت الآيات المتشابهات في القصص وغيرها؛ بالزيادة والنقص، والتقديم والتأخير، وإبدال لفظة مكان أخرى، ونحو ذلك."[15]

أمّا وجوه التناسب أو قلْ أنواع العلائق التي يرتكز عليها، فتتنوّع بتنوّع معانيه ومضامينه، وقد ذكر العلماء أربعة منها، وهي التنظير والمقابلة والاستطراد والانتقال. ولعلّ النظر في فروع هذه الوجوه يجعلها قابلة للنقاش والتعدّد، لأنّها ترتبط بالمعنى، ويجوز بذلك إدخال أبواب علم المعاني فيها، بما فيه مثلا من قياسات الكلام، كالإطناب والإيجاز والمساواة، وغير ذلك من وجوه الارتباط الممكنة. الموضوع على ما أرى قابل للتأمّل والاجتهاد.

غير أنّ أبسط تلكم الطرق هي النظر إلى المناسبات داخل السورة الواحدة، أو بين السورة والسورة، وسأكتفي باستعراض أمثلة يسيرة لبيان كلّ نوع:

التناسب داخل السورة الواحدة: ويتعلّق باستكشاف الروابط بين الآيات واستكناه الحكمة من ترتيبها على ذلك النحو، ويضمّ هذا القسم أبوابا عديدة، تشمل علاقة السورة باسمها، وعلاقة الآية الواحدة، أو الآيات المتعدّدة، بما يسبقها ويلحقها من الآيات. ويدخل في ذلك أيضا استجلاء التناسق بين مطلع السورة وخاتمتها، وبين مجمل الآيات ومقصد السورة التي تنتمي إليها، وبين مقصد السورة وبراعة الاستهلال، وبين الآي وفواصله، وبين اللفظ والسياق بما يتضمّنه ذلك من تطرّق لعلم البلاغة بأقسامه الثلاثة الكبرى، المعاني والبيان والبديع، وما يتفرّع عنها من مباحث مختلفة. وسأسوق في هذا المقام مثالَيْن عن علاقة التناسب بين الآيات، وتخريج علماء التناسب لهما:

المثال الأوّل: تناسب الآية مع سابقاتها ولاحقاتها

[15] معترك الأقران، ص 38. 39

البقرة /238	﴿حَافِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَاتِ وٱلصَّلَاةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَانِتِينَ ﴾

أمّا الأوّل فيتعلّق بآية عجيبة في سورة البقرة، تأتي في سياق آيات طويلة تمحورت كلّها حول ذكر وتفصيل أحكام النساء، والزواج والإصلاح بين الأزواج، والطلاق، تمتدّ في مقطع يتضمّن عشرين آية من الآية 221 إلى 241. لكن فجأة بينا أنت تتأمّلها ويستغرق فكرك في الأحكام الزوجيّة، إذ تفاجؤك بها آيتان عجيبتان في موقعهما، تذكّران المؤمن بالمحافظة على الصلاة. وتزيد الإثارة بعبارة أخرى تسترعي الاهتمام، وهي الصلاة الوسطى، ثمّ يزيد العجب والتساؤل عن الحكمة في ذلك، عندما يُستكمل الحديث عن أحكام الطلاق مباشرة، بعد الآيتيْن المذكورتيّن. فما تفسير ذلك؟

يعلّق البقاعي مجيبًا:

"ولما ذُكرت أحكام النساء وشعبت، حتى ضاق فسيح العقل بانتشارها، وكاد أن يضيع في متسع مضمارها، مع ما هناك من مظنة الميل بالعشق والنفرة بالبغض الحامل على الإحن والشغل بالأولاد، وغير ذلك من فتن وبلايا ومحن يضيق عنها نطاق الحصر، ويكون بعضها مظنة للتهاون بالصلاة بل وبكل عبادة اقتضى الحال أن يقال: يا رب! إن الإنسان ضعيف وفي بعض ذلك له شاغل عن كل مهم فهل بقي له سعة لعبادتك؟ فقيل: ﴿حافظوا﴾ بصيغة المفاعلة الدالة على غاية العزيمة أي ليسابق بعضكم بعضاً في ذلك، ويجوز أن يكون ذلك بالنسبة إلى العبد وربه فيكون المعنى: احفظوا صلاتكم له ليحفظ صلاته عليكم، فلا يفعل فيها فعل الناسي فيترك تشريفكم بها، وأخصر منه أن يقال: لما ذكر سبحانه وتعالى ما بين العباد خاصّة، ذكر ما بينه وبينهم فقال: – وقال الحرالي: لما كان ما أُنزل له الكتاب إقامةُ ثلاثةِ أمور: إقامة أمر الدين الذي هو ما بين العبد وربه، وتمشية حال الدنيا التي هي دار محنة العبد، وإصلاح حال الآخرة والمعاد الذي هو موضع قرار العبد، صار ما يجري ذكره من أحكام تمشية الدنيا غلساً نجومُ إنارتهِ أحكامُ أمر الدين، فلذلك مطلع نجوم خطابات الدين أثناء خطابات أمر الدنيا فيكون خطاب الأمر نجماً خلال خطابات الحرام والحلال في أمر الدنيا؛ وإنما كان نجم هذا الخطاب للمحافظة على الصلاة، لأن هذا الاشتجار المذكور بين الأزواج فيما يقع من تكرّه في الأنفس وتشاحّ في الأموال، إنما وقع من تضييع المحافظة على الصلوات، لأن الصلاة بركة في الرزق وسلاح على الأعداء وكراهة الشيطان، فهي دافعة للأمور التي منها تتضايق الأنفس وتقبل الوسواس ويطرقها الشح، فكان في إفهام نجم هذا الخطاب أثناء هذه الأحكام الأمر بالمحافظة على الصلوات لتجري أمورهم على

سداد يغنيهم عن الارتباك في جملة هذه الأحكام – انتهى."[16]

ويظهر من هذا المثال، بقطع النظر عن رأي سامعه في أسلوب البقاعي، أنّ أوجه استقراء روابط آيات عديدة ومتنوّعة، ويتبيّن كذلك منهج ممكن لاستنباط العلائق الخفيّة بينها، بربطها بمعاني السياق الذي جاءت فيه. وقد يقتضي الأمر الخروج عن الحدود الضيّقة للآية المذكورة، والتفكّر في المعاني الكلّية والجزئيّة في القرآن الكريم، الدائرة حول محور العقيدة والعبادات وغيرها، خاصّة بربط لفظ الآية أو معناها أو أسلوبها بما يشابهها أو يذكّر بها من الآيات. والحقيقة أن ما أورده البقاعي في ما سبق له ما يؤيّده من الوجاهة. فمن ذلك أنّ القرآن الكريم قد أجلى قيمة الصلاة في عقيدة المسلم وعبادته أيّما إجلاء، وأسند لها وظائف دينيّة وروحيّة وبدنيّة واجتماعيّة متعدّدة، فإن ربطنا ذلك مثلا بقوله تعالى في سورة العنكبوت:

29/45	﴿ ٱتْلُ مَا أُوْحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَابِ وَأَقِمِ ٱلصَّلوٰةَ **إِنَّ ٱلصَّلوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنْكَرِ** وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴾

برزتْ لنا إحدى أهمّ تلك الوظائف، فالصلاة في الإسلام تسمو على كونها مجرّد شعيرة بدنيّة يوميّة يؤدّيها المؤمن امتثالا لأمر ربّه بإقامتها، لتمثّل ـ فضلا عن ذلك ـ مساعدا أخلاقيا وسلوكيّا يتسلّح به المؤمن لما قد يقع فيه من الانجرار إلى السلوك السيء، وتجد هذا الفهم للصلاة حاضرا في أذهان الصحابة والمفسّرين منذ الرعيل الأوّل إذ "أخرج ابْن جرير وَابْن الْمُنْذر وَابْن أبي حَاتِم عَن ابْن عَبَّاس رَضِي الله عَنْهُمَا فِي قَوْله ﴿إِن الصَّلَاة تنْهى عَن الْفَحْشَاء وَالْمُنكر﴾ يَقُول: فِي الصَّلَاة مُنْتَهى ومزدجر عَن معاصي الله." قال الحسن وَقَتَادَةُ: من لم تنهه صَلَاتُه عن الفحشاء والمنكر فليست صَلَاتُه بِصَلَاة، وهي وَبَال عَلَيه." [17]

وإذا أخذنا بعين الاعتبار ما يكون في حال الخصام أو الطلاق بين الأزواج من مشاحنة وتدافع، قد يصل إل حدّ اجتراح المعاصي بالفحش من القول أو الإيذاء في المال أو في الولد أو النفقة وما شابه، و لما كان الانشغال بهذا الأمر الدنيويّ، و تفرّق العائلة، وحرمان الأولاد من رعاية الوالديْن الناجم عن

[16] نظم الدرر، 3/359. 361

[17] معاني القرآن للزجّاج، 4/169

افتراقهما، وما ينجرّ عن كلّ ذلك من محن، يشتّت فكر الأب والأمّ على حدّ السواء، وقد يبعدهما عن صلتهما بربّهما التي هي الصلاة، ناسبَ أن يُذكّرهما البارئ تعالى، ومن ورائهما كلّ المؤمنين والمؤمنات، بالمحافظة على الصلاة التي تلعبُ هنا دوريْن في غاية الأهمّية. إنّها توثّق صلتهما بربّهما وتدعّم إيمانهما، فالأَوْلى أن ينتبها لإقامتها في أحلك الظروف، فتكون لهما سندا وعونا، وتمنحهما سكون النفس والاطمئنان، حتّى أثناء المرور بمحن الحياة، وما أكثرها. ومن جهة أخرى، تساعدهما الصلاة بمثل هذه الظروف على تقوى الله، ومعاملة أحدهما للآخر بما يرضي الله، ولو كان ذلك في أبغض الحلال. كما تذكّرهما الصلاة بالسجود والذكر والدعاء والتضرّع لتخطّي تلك الظروف.

وفضلا عن ذلك، فإنّ النفس في حالة التخاصم قد تنزع إلى المغالاة والتطرّف في إيذاء الطرف الآخر، إذا استسلمت لتلك الأمّارة بالسوء. وقد يكون سبب الغلوّ النكاية أو الشماتة أو المكابرة، فتكون المداومة على الصلاة مانعة لذلك الغلوّ، محفّزة على الاعتدال والتوسّط، ولعلّ في اختيار لفظ ٱلْوُسْطَى، رغم اختلاف العلماء بشأن علاقتها بصلاة العصر أو الصبح،[18] إشارة ضمنيّة فحواها دعوة إلى ذلك. وخلاصة القول أنّ الإبحار في روابط هذه الآيات بحر زخّار، يكشف عن فرادة النصّ القرآنيّ، ولا تنقطع مرامي النظر فيه.

المثال الثاني: تناسب فواتيح السورة وخواتيمها:

يعدّ هذا النوع من أجمل وأوضح أنواع الترابط وأكثرها بروزا في القرآن الكريم، ويعدّه العرب من وجوه البلاغة في الكلام، إذ يُستحسن أن يتناسق مطلعه وخاتمته، بل إنّ هذا النوع من التناسق قانون يحكم البنية النصّية والدلاليّة والسياقيّة للسور القرآنيّة كلّها، باستثناء السور القصيرة التي يغلب عليها موضوع واحد ظاهر يُؤدَّى معناه في آيات قليلة من قصار السور، فلا ضرورة عندئذ للبحث عن علاقة البداية بالنهاية. ومن هذه الأمثلة ما لا يعسر إدراكه، مثل التناسب الظاهر بين افتتاح سورة المؤمنون

[18] انقسم العلماء حول معنى الصلاة الوسطى بين فريقيْن، أحدهما يقول إنّها صلاة الصبح،وبه أخذ الجمهور، لحديث عائشة، والآخر يعتبرها اسما لصلاة العصر، لحديث ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم. للتعرّف على ملخّص اقوال العلماء في هذه المسألة، يمكن زيارة الموقع التالي:
http://fatwa.islamweb.net/fatwa/index.php?page=showfatwa&Option=FatwaId&Id=308275

واختتامها، المبنيّ على المقابلة بين ضدّين، كما يلاحظ المفسّرون، ومنهم أبو السعود: " بُدئتِ السُّورةُ الكريمةُ بتقريرِ فلاحِ المؤمنين وخُتمتْ بنفيِ الفلاحِ عن الكافرينَ"[19]:

المؤمنون 1	﴿ **قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ** ﴾

المؤمنون 117	﴿ وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ **إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ ٱلْكَافِرُونَ**﴾

فانظر إلى هذا الشمول والتناسق الذي عبّر عنه الزمخشريّ بقوله: "فشتّان ما بين الفاتحة والخاتمة".[20]

ومن أمثلة هذا النوع من التناسب، الذي صنّف فيه السيوطي رسالة مُختصرة بعنوان "مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع"، ماهو أدقّ وأخفى، مثل سورة القصص، إذ يبرز فيها بعد التأمّل والتدبّر، خيط رابط بين بدايتها وخاتمتها:

ففي أوّلها عرض لجوانب من قصّة موسى عليه السلام منذ ولادته، إذ **وعد الله أمّ موسى بردّه إليها**، بعد أن أوحى إليها بإلقاءه في اليمّ:

القصص 7	﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلاَ تَخَافِى وَلاَ تَحْزَنِىٓ **إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ** وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾

وبعد إيفاء الله بوعده بإنقاذ موسى وردّه إلى أمّه، تستعرض السورة أحداثا في حياته، وقد بلغ أشدّه، من أبرزها **خروجه مهاجرا من موطنه، بعد أن خشي من الأذى**. ومن اللافت أيضا إثبات الله بأنّه وعد الذين استضعفوا بالنصر والتمكين:

القصص 21	﴿ **فَخَرَجَ مِنْهَا** خَآئِفاً يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾

والمتأمّل في آخر السورة يجد هذيْن المعنييْن قد عاودا الظهور فيها، فالخطاب موجّه للرسول ﷺ، وفيه

[19] تفسير أبي السعود/إرشاد العقل السليم 154/6

[20] الكشاف: 207/3، من الواضح أن" تعليق الزمخشري حول التناسب البديع بين أوّل وآخر السورة قد نال إعجاب المفسّرين، من بعده، فتناقله كثير منهم. نجد ذلك مثلا في: تفسير الرازي/مفاتيح الغيب 300/23، تفسير النسفي: 485/2،

تسلية أيضا **بهجرته لموطنه، ووعد له بردّه إليه، بعد أن خشي من أذى قومه**، والوعد نفسه يحمل التبشير بالنصر والتمكين:

28/85	﴿ إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْآنَ **لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ** قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾

والمتأمّل لتكرار العبارات المعبّرة عن هذا الردّ في أوّل السورة: **رَآدُّوهُ، فَرَدَدْنَاهُ،** ثم في أواخرها **لَرَآدُّكَ** ، يجدُ دليلا واضحا على هذه العلاقة.فإذا طبقنا الفهم التناسبيّ للسورة، ظهر الانسجام بين البداية والنهاية، اللتيْن تخدمان في تظافر عجيب غرضا واحدا، وهو مواساة الرسول ﷺ في بداية النبوّة في محنته مع أذى المشركين وصدّهم، إذ اتفق جمهور العلماء أنّ ذلك يمثّل أحد أهمّ مقاصد القصص في القرآن. ومن أجل هذا انصبّت السورة على هذا الهدف وتمحورت حوله، فكأنّ الله تعالى يصبّر النبيّ على ما يلقاه من أذى بتذكيره بما أنعم به على موسى من ردّه إلى أمّه، ونصرته، بل ويؤكّد القرآن ذلك باستعمال الصيغتين الاسميّة **رَآدُّوهُ** التي تدلّ على الثبوت والدوام والفعليّة **فَرَدَدْنَاهُ** التي تثبت الوقوع، فكأنّ الخطاب الإلاهيّ الضمنيّ للسورة إلى الرسول هو: كما رددنا موسى إلى أمّه، وأنجيناه من الموت على يد فرعون، ثمّ أنجيناه من محن متلاحقة مصاحبة للرسالة، فلتطمئنّ . يامحمّد . ولتقرّ عينُك، فسنردّك لامحالة إلى موطنك، ولذلك ظهرت الصيغة الاسميّة مجدّدا توكيدا للأمر. والهجرة قاسم مشترك آخر بين القصّتيْن.

التناسب بين السور: وهو كما أسلفنا متعدّد الصور، واخترت منها نوعين: أوّلها التناسب العامّ بين السور وثانيهما التناسق بين نهاية السورة وبداية اللتي تليها.

المثال الأوّل: التناسب بين فواتح السور:

تأمّل معي مطْلع هاتيْن السورتيْن:

سورة النّساء	سورة الحج
	بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ** ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَآءً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى	﴿**يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ** إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ﴾ 1

تَسَآءَلُونَ بِهِ وَٱلأَرْحَامَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ 1	

يقف القارئ الحصيف للقرآن الكريم عند مقارنة بعض السور . أوشيء منها . بالبعض الآخر، على دلائل واضحة لجمال التناسب بينها، خاصّة إذا اشتركت في أمر أو أمور، تدعو الباحث إلى عقد تلك المقارنة. ومن أظهر الأمثلة على ذلك ما يتعلّق بفواتح السور، فمن يتأمّلها يلاحظ مثلا تفرّد سورتيْن فقط، في القرآن كلّه، بافتتاحهما بالخطاب العامّ الموجّه إلى الناس قاطبة ودعوتهم لتقوى الله، بواسطة أسلوب النداء بعبارة: ﴿ يٰأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ ﴾، وهما النساء والحجّ. ويتبيّن بينهما انسجام عجيب مبنيّ على المقابلة الدلاليّة بين سياق الدنيا من ناحية وسياق الآخرة من ناحية أخرى. فبينما يأتي الأمر الإلاهيّ بالتقوى في سورة النساء مرفوقا بذكر التناسل والأرحام والولادة، وهي تمثّل البداية في حياة الإنسان، فإنّ نفس ذلك الأمر يرد في سورة الحجّ في إطار مرفوق بإحدى علامات الآخرة وهي الزلزلة، وكأنّ الله تعالى يشير بهذا الشمول إلى البشر: أن اتقوني في الدنيا كي تقُوا أنفسكم هول يوم الزلزلة، ولأهمّية فحوى هذه الرسالة الإلاهيّة لجميع البشر، فقد ناسب أن يُوجّه الخطاب لهم جميعا، لا يخصّ فقط المؤمنين منهم. فياله من تناسب معنويّ عجيب، بين بداية الإنسان ونهايته، والحياة والموت، والدنيا والآخرة.

المثال الثاني: التناسب بين خاتمة سورة وفاتحة التي تليها:

ويعكس هذا الضرب من التناسب بي السور أمريْن يستحقّان الذكر: فتعلّق نهاية سورة ببداية ما بعدها . أيّا كان وجه هذا التعلّق . يبيّن من ناحية ما يوليه القرآن من اهتمام بالغ باسترسال الكلام وانسيابه، وتعلّق ببعضه ببعض من خلال إحكام النظم، وهو ما يعدّه العرب من البلاغة في البيان. وفضلا عن ذلك، يكتسب هذا النوع من الارتباط درجة عالية من الأهمّية والحساسيّة فيما يتعلّق بعلوم القرآن، إذ هو يمثّل . بوجه من الوجوه . حجّة علميّة تستحقّ النظر، عندما يتعلّق الأمر بعلم ترتيب سور القرآن. وهي موجّهة لكلّ من القائلين بالاجتهاد في ترتيبها من علماء المسلمين، وكذا للذين يبذلون جهودا حثيثة للتشكيك في الترتيب المصحفيّ للسور، والبحث عن أيّة علامات قد تلمّح إلى ترتيب غيره. ويحفل القرآن الكريم بهذا النوع من الترابط الذي يمكن التماسه في نهاية سورة وبداية أخرى، وقد يظهر

حينا ويختفي آخر، وقد تتعدّد أوجه الارتباط وتختلف فتكون نصّية، أو لفظيّة أو معنويّة، أو سياقيّة، أو كلّ ذلك مجتمعا، مع محافظة كلّ سورة على طابعها الخاصّ المميّز لها عن باقي السور. ولا يتّسع المجال في هذا المقام للتعرّض للعدد الوفير من الأمثلة التي يعجّ بها القرآن حول هذه الظاهرة، لذلك سأورد نصّا جامعا لأمثلة عديدة، أحسبه يفي بالغرض، أورده السيوطيّ في الإتقان:

"[...]قُلْتُ وَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى أَنَّ تَرْتِيبَ السُّوَرِ توقيفيّ وهذا الرَّاجِحُ كَمَا سَيَأْتِي وَإِذَا اعْتَبَرْتَ افْتِتَاحَ كُلِّ سُورِهِ وَجَدْتَهُ فِي غَايَةِ الْمُنَاسَبَةِ لِمَا خَتَمَ بِهِ السُّورَةَ قَبْلَهَا، ثُمَّ هُوَ يَخْفَى تَارَةً وَيَظْهَرُ أُخْرَى، كَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْأَنْعَامِ بِالْحَمْدِ فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ سُورَةِ الْمَائِدَةِ مَنْ فَصْلِ الْقَضَاءِ كَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ ﴿ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾، كَافْتِتَاحِ سُورَةِ فَاطِرٍ بِ ﴿الْحَمْدُ﴾ أَيْضًا، فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ مَا قَبْلَهَا مِنْ قَوْلِهِ ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِن قَبْلُ﴾ وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾، وَكَافْتِتَاحِ سُورَةِ الْحَدِيدِ بِالتَّسْبِيحِ فَإِنَّهُ مُنَاسِبٌ لِخِتَامِ سورة الواقعة من الأمر به، وكافتتاح الْبَقَرَةِ بِقَوْلِهِ ﴿الم ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فيه﴾ إِشَارَةً إِلَى ﴿الصِّرَاطَ﴾ فِي قَوْلِهِ ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ المستقيم﴾ كَأَنَّهُمْ لَمَّا سَأَلُوا الْهِدَايَةَ إِلَى الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ قِيلَ لَهُمْ ذَلِكَ الصِّرَاطُ الَّذِي سَأَلْتُمُ الْهِدَايَةَ إِلَيْهِ هُوَ الْكِتَابُ، وَهَذَا مَعْنًى حَسَنٌ يَظْهَرُ فِيهِ ارْتِبَاطُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ بِالْفَاتِحَةِ وَهُوَ يَرُدُّ سُؤَالَ الزَّمَخْشَرِيِّ فِي ذَلِكَ وَتَأَمَّلِ ارْتِبَاطَ سُورَة ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ بِسُورَةِ الْفِيلِ حَتَّى قَالَ الْأَخْفَشُ: اتِّصَالُهَا بِهَا مِنْ بَابِ قَوْلِهِ ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾[21]

خلاصة مبحث التناسب: نخلص في نهاية هذه اللمحة السريعة حول التناسب إلى النقاط التالية:

❁ يُعتبر علم التناسب القرآني، المعروف بين الباحثين تحت مصطلح علم المناسبة/المناسبات، من أجلّ وأدقّ علوم القرآن الكريم، اللتي تكشف جانبا هامّا من إحكام نظمه وتناسبه مع أرقى فنون البلاغة العربيّة. وهو علم اجتهاديّ توفيقيّ مبنيّ على الرأي والدليل والاستقراء، وهو بذلك منفتح على المناقشة والأخذ والردّ. وما يزيد هذا العلم تشويقا وإثارة للفضول العلميّ، هو أنّ أوجه الائتلاف والتناسق بين أجزاء القرآن تبدو مرّة وتختفي أخرى، فهي دعوة قرآنيّة لمن أراد أن يتدبّر، لبذل الجهد وإعمال العقل

[21] البرهان 38/1

فيما أشكل من المناسبات، على أن يكون ذلك بمنأى عن التكلّف أو التعسّف أو تحميل النصّ ما لا يحتمل من معان مسقطة، دون قرينة سياقيّة أو دلاليّة أو لفظيّة أو نحو ذلك من أصناف القرائن.

۞ نما هذا العلم عبر التاريخ الإسلاميّ تدريجيّا، فبدأ في إشارات قليلة للرسول ﷺ وأوائل المفسّرين ثمّ تحوّل إلى شذرات عند المفسرين بربطهم بين سياق الآي، ثمّ تفطّن إليه العلماء والمفسّرون بداية من القرن الرابع الهجريّ وما يليه، فأضحى حاضرا في تفاسيرهم، مثل الزمخشري والرازي، ثم استحال علما من علوم القرآن ومبحثا بارزا من مباحثه على يد الغرناطي والبقاعي، الذيْن لهما الفضل في استقلاله، فعدّه الزركشي والسيوطي من تلك العلوم، بل إنّ الأوّل جعله في المرتبة الثانية منها، بعد أسباب النزول.

۞ ومن هنا تتوضّح للقارئ أو الباحث، مع العلم والدراية بعلم المناسبات، مدى بلاغة الخطاب القرآني في مراعاة الاتساق في الكلام، وهو فنّ لا يتذوّقه ـ على ما أرى ـ إلّا من كان عالما بأسرار اللغة ودقائق البلاغة، فحينئذ ينقشع ما قد يبدو للقارئ المتعجّل تشتّتا في المعاني، أو تكديسا للدلالات على غير نظام دقيق معلوم، وهو زعمٌ اشتُهر خاصّة بين عدد من المستشرقين[22]، وقد آن أوان مراجعته في ضوء الدراسات الإسلاميّة الحديثة المعلّقة بعلوم القرآن والبلاغة العربيّة، التي لم يقع بعد دراستها أو التعمّق فيها عند أهل الاختصاص في العالم الغربيّ، بما هي به حقيقةٌ. وأقترح أن يكون مبحث التناسب القرآنيّ أحد هذه الطرائق، التي تستحقّ الاهتمام، وتصلح أن تكون منهجا لإعادة النظر في بعض القضايا البحثيّة في مجال الدراسات القرآنيّة.

۞ يرتبط مبحث التناسب بأصناف أخرى من علوم البلاغة والقرآن، فلا يمكن للعالم أو المفسّر التصدّي له، دون تذوّق أسرار البلاغة العربيّة، والوقوف على أبوابها، لأنّها توضّح وجوه العلائق بين الكلمات والجمل، وتبلغ أبلغ صورة لها في القرآن الكريم. ولذلك اعتبره العلماء وجها من وجوه الإعجاز القرآني، وانظر إلى الرازي معلّقا على آخر سورة البقرة:

[22] الحقيقة أنّ هذه المزاعم قد بدأت منذ بداية الاستشراق ، ومازال لبعضها أثر يتردّد اليوم، نجد ذلك مثلا عند نولدكه في كتابه "تاريخ القرآن" أو كتابه "ملاحظت نقديّة حول لغة القرآن وأسلوبه".

"وَمَنْ تَأَمَّلَ فِي لَطَائِفِ نَظْمِ هَذِهِ السُّورَةِ وَفِي بَدَائِعِ تَرْتِيبِهَا عَلِمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَمَا أَنَّهُ مُعْجِزٌ بِحَسْبِ فَصَاحَةِ أَلْفَاظِهِ، وَشَرَفِ مَعَانِيهِ، فَهُوَ أَيْضًا بِسَبَبِ تَرْتِيبِهِ، وَنَظْمِ آيَاتِهِ، وَلَعَلَّ الَّذِينَ قَالُوا: إِنَّهُ مُعْجِزٌ بِسَبَبِ أُسْلُوبِهِ أَرَادُوا ذَلِكَ إِلَّا أَنِّي رَأَيْتُ جُمْهُورَ الْمُفَسِّرِينَ مُعْرِضِينَ عَلَى هَذِهِ اللَّطَائِفِ غَيْرَ مُنْتَبِهِينَ لِهَذِهِ الْأَسْرَارِ وَلَيْسَ الْأَمْرُ فِي هَذَا الْبَابِ إِلَّا كَمَا قِيلَ:

وَالنَّجْمُ تَسْتَصْغِرُ الْأَبْصَارُ صُورَتَهُ ** وَالذَّنْبُ لِلطَّرْفِ لَا لِلنَّجْمِ فِي الصِّغَرِ"

وهذا يفتح المجالات رحبة أمام أبواب جديدة في مبحث الإعجاز، لعلّ من أهمّها ما يتعلّق بالتناسب البلاغي والاتساق البياني داخل النصّ القرآنيّ ومكوّناته، وما يستتبعه ذلك من تأمّل في النظم والترتيب. ويصلح أن يكون ذلك في إطار مناقشة علميّة للدراسات القرآنيّة الحديثة، خاصّة منها التي تقدّم أطروحات نقديّة لترتيب السور، أو تداخل المعاني داخل القرآن الكريم.

۞ يمكن تلخيص أهمّ القواعد التي يقوم عليها هذا العلم ـ على ما أرى ـ في مجالات أربعة، ذات أطراف ثنائيّة متقابلة، تمثّل المبادئ الأساسيّة لمفهوم التناسب في القرآن، وقد ييسّر الله تعالى ـ لي أو لغيري من الباحثين ـ التعمّق فيها في مستقبلا، إن شاء. ألخّصها في الرسم التالي، وأطرحها للتفكّر والنقاش:

المبادئ الثنائيّة الأربع لعلم التناسب القرآني:

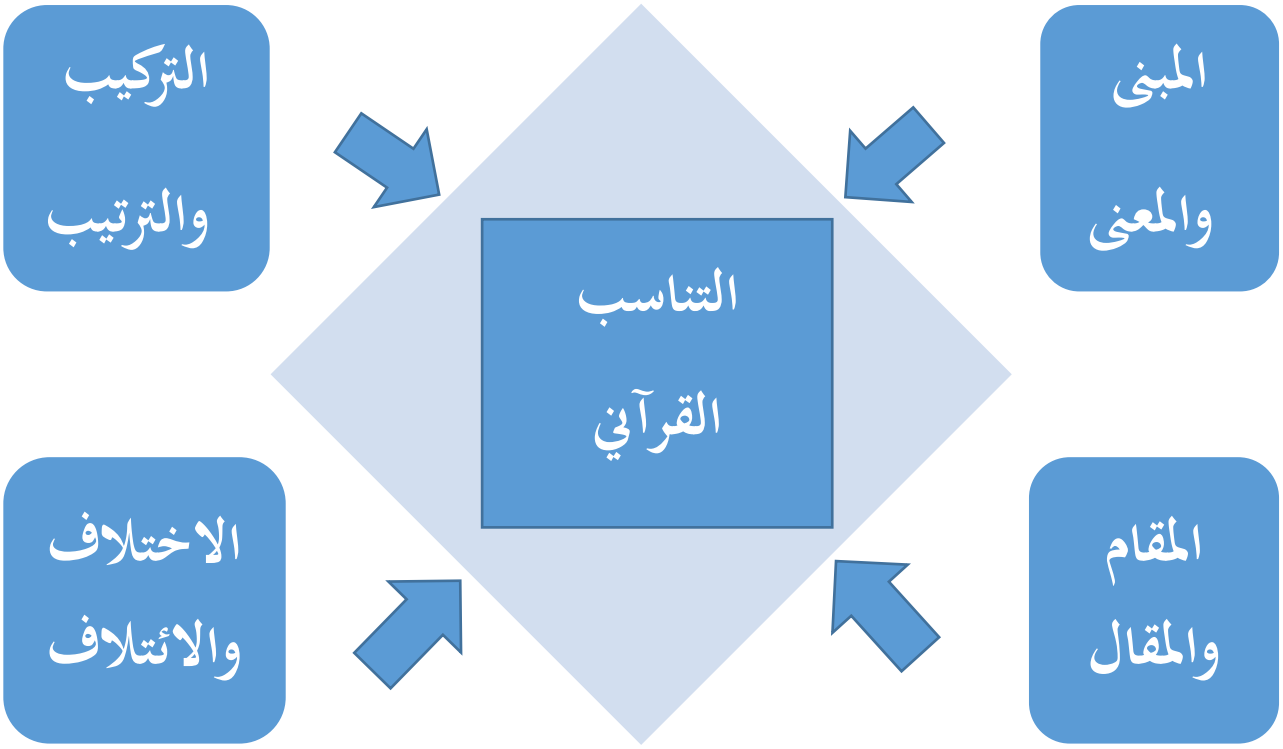

۞لابدّ من إشارة أخيرة إلى فوائد استقصاء مظاهر التناسب في القرآن الكريم، ففضلا عن أهمّيته في حقل التفسير، لأنّه يساعد المفسّر على استجلاء معانيه، خاصّة ما يُشكل منها، فهو يسند المؤمن في مجال حفظ القرآن الكريم، وفهم النسق القرآني، ومعرفة الحكمة من ترتيب الأحكام، والقصص، ومقاصد القرآن، وغير ذلك من أمور الدين. ومن أعظم فوائده كذلك التعرّف على دقائق البلاغة القرآنيّة في أبهى صورها، وفهم ما يتستّر وراء كلّ استعارة أو كناية أو تشبيه، أو مجاز، أو طباق، أو تقديم، أو تأخير أو إيجاز أو إطناب أو التفات أو انتقال، أو غير ذلك ممّا لا يُحصى من فنون البلاغة، من تناسب مع المعنى، وتناسق مع المبنى. وأحسب أنّ ذلك من أشرف أضرب **تدبّر القرآن**، الذي اعتبره العلماء أشرف غاية لعلم المناسبات. وهذا ما يمهّد الطريق لاستكشاف هذا المفهوم في القرآن الكريم في جولة مع بعض الآيات التي تناولته، التي ستكون لنا معها وقفات، في إطار ما سبق طرحه من مفهوم التناسب القرآنيّ، ومع ربط ذلك بمفهوم جامع أطلق عليه اسم " التدبّر البياني".

2. "القراءة التدبّريّة" و"التدبّر البياني" للقرآن الكريم

يمرّ من أكرمه الله من خلقه من المؤمنين، بالآية أو الطائفة من الآي من كتاب الله عزّ وجلّ بأحد طريقيْن: إمّا مرور المتعبِّد بتلاوته وحفظه، المجتهد في تجويده وقراءاته، القارّ عيناً باليسير من ظاهر تفسيره، المحروم من استكناه حِكَمه واستقصاء تعابيره، وإمّا مرور المدقّق المتدبّر الذي يكرمه الله بما قد أقترح تسميته ـ مجازا ـ "بالقراءة التدبّريّة"[23]، التي يصطحب فيها القلبَ العقلُ، ويقترن فيها الذهن باللسان، فلا يغادر هذا القارئ المتدبّر صغيرة ولا كبيرة من ملامح القرآن الإعجازيّة، وخصائصه الدينيّة التفسيريّة، أو أفانينه البلاغيّة والصوتية والدلاليّة، وإشاراته العلميّة و التاريخيّة أو الثقافية وغيرها، إلاّ أمعن فيها النظر، وأعمل فيها الفكر والسمع والبصر، واستكشف من خلالها بصيصا من نور أسرار هذا الكتاب، الذي حيّر ـ بكلّ ما فيه ـ القدامى والمحدثين، من العلماء والباحثين.

ولعلّ هذا ما يقودني في هذا المقام إلى التوقّف عند بعض الأبعاد اللافتة في مفهوم التدبّر القرآني، لارتباط ذلك بإحدى الغايات المحوريّة لهذه الدراسة، وهي التوكيد على متانة العلاقة بين فهم الظواهر والخصائص اللغوية العربيّة من جهة، وفهم النصّ والخطاب القرآني من جهة أخرى. وأوجز أهمّ تلك الأبعاد في النقاط التالية:

۞ لقد أسهب أهل العلم قديما وحديثا في العناية بتعريف المقصود بالتدبّر في القرآن الكريم باعتباره يمثّل مقصدا عامًّا فيه، ولئن اتفق جمهور أهل اللغة والمفسرين عامّة، مثل الطبري والزمخشري والبقاعي وغيرهم، على أنّ معناه اللفظي يمكن حصره بقول ذكره الرازي في تفسيره: "التدبير والتدبّر: عبارة عن النظر في عواقب الأمور وأدبارها"[24]، فقد أضافوا لمسات طريفة على المفهوم الاصطلاحي المقصود في التفسير

[23] لا أعلم بالضبط إن كان لي قصب السبق في استعمال عبارة: "القراءة التدبّرية" للقرآن الكريم، وأرجح أن يكون قد سبقني إليها كثير من العلماء والباحثين اصّة في مجال الدراسات التفسيريّة. وعلى أيّة حال، فالأهمّ من الأسبقيّة هو فهم هذا المصطلح المستحدث، الذي أحسب أن يكون ذا شأن في الدراسات النتعلّقة بعلوم القرآن الكريم في المستقبل إن شاء الله، وهو حقيقٌ بمزيد من البحث والتعريف والتأصيل، خاصّة إذا ما ربطه الباحث أو المفسّر بمستجدّات العلوم اللغوية والإنسانية الحديثة.

[24] مفاتيح الغيب = التفسير الكبير 10/ 151

وعلوم القرآن، لعلّي أستعير في هذا المقام بعضا من أبلغها. نلاحظ أوّلاً ربط التدبّر عند كثير منهم بمفاهيم مثل التأمّل والتفكّر، وهي عمليّات عقليّة، تبدأ بالملاحظة وتمرّ بالتحليل العقلي و تنتهي إلى نتائج معلومة، ولَوْ لم يكن هذا الطابع العقلي مقصودا وغالبا، لما أمر الله تعالى المشركين والمنافقين بالتدبّر، إذ هو يخاطب فيهم العقل قبل الروح، لأنّهم ليسوا مؤمنين بالإسلام، وطريقهم الأقرب إلى الإيمان هو الاستدلال العقليّ بالتأمّل في الإشارات الكونيّة الدّالة على الخالق. ولا يُفهمَنّ من ذلك أنّ تدبّر المسلم للقرآن يختلف عن ذلك كثيرا، فقد أبرز الزمخشري في تفسيره أنّ المقصود بقوله تعالى: ﴿لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ﴾ [ص/الآية 29] هو: "التفكر فيها، والتأمّل الذي يؤدّي إلى معرفة ما يدبّر ظاهرها من التأويلات الصحيحة والمعاني الحسنة، لأنّ من اقتنع بظاهر المتلوّ، لم يحل منه بكثير طائل، وكان مَثله كمثل من له لقحة درور لا يحلبها، ومهرة نثور لا يستولدها"[25]، فكأنّه بهذا المعنى عبارة عن تفكيك للظاهر واستجلاء لباطن الأمر والحكمة من الأشياء. وقد ربط المفسرون بين التفسير من جهة والتدبّر من جهة أخرى، بصفته يقود لاستنباط ما قد يزيد عن التفسير، أو ما يساعد عليه، ولهم في ذلك أقوال، وإيضاحا للأمر فقد أدلى الأستاذ منّاع القطان بدلوه في هذا الموضوع، وفصل بين المفهومين وأجلى العلاقة بينهما بقوله: "والأصلُ أنَّ مرحلةَ التَّدبُّرِ تأتي بعدَ الفَهْمِ، إذ لا يُمكنُ أن يُطلبَ منك تدبُّرُ كلامٍ لا تعقِلُه، وهذا يعني أنَّه لا يوجدُ في القرآنِ ما لا يُفهَمُ معناهُ مطلقاً، وأنَّ التَّدبُّرَ يكونُ فيما يتعلَّقُ بالتَّفسيرِ؛ أي أنَّه يتعلَّقُ بالمعنى المعلومِ."[26] ويشير الباحث الأستاذ نايف الزهراني في دراسة فريدة له بهذا الإطار إلى تعريف دقيق أحسبه أقرب ما يكون لما أقصده في هذا السياق، فهو يعرّف التدبّر بأنّه: "التأمّل في معاني الآيات التفسيرية والاستنباطية بقصد معرفة الحق فيها، والانتفاع به علماً وعملاً، وفهم هذا المعنى يتوقف على بيان جوانب منه:

[25] الكشاف 90/4

[26] مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر 87

"فالتفسير هو المعنى المباشر للفظ، والاستنباط هو المعاني التالية والتابعة للمعنى المباشر والمتعلّقة به بنوع علاقة، وهذه الاستنباطات بطبيعتها متفاوتة في القرب والبعد والوضوح والخفاء."[27]

ونخلص من هذا القول إلى أنّ علاقة التدبّر بالتفسير علاقة تآلف وانسجام وتكامل، ولنقل كأنّها علاقة السطح بالعمق، فإن كان التفسير كاشفا لظاهر المعنى، فإنّ التدبّر بالمعنى التفسيري يلج بصاحبه إلى مرحلة أخرى تمكّن المؤمن من استنباط ما قد يكون خافيا. أمّا الخطاب الموجّه لغير المؤمنين، فيربط التدبّر بما يكون ظاهرا للعيان لكن خافيا على البصيرة. ويبرز هذا المعنى الأخير على وجه الخصوص في خطاب القرآن الكريم للمشركين والمنافقين ودعوتهم إلى التدبّر بصور شتّى، منها دعوتهم للسير في الأرض والتفكر في الخلق والخالق، وكذا الإخبار عن قصص من سبقهم من الأقوام والأنبياء، أو ضرب الأمثال، وغير ذلك.

﴿لا يعسر على من يتأمّل القرآن الكريم أن يخلص إلى حقيقة عقليّة، يصدّقها تحليل الآيات المتعلّقة بهذا الموضوع وكذا القرآنُ كلّه، وتتلخّص في أنّ الدعوة إلى التدبّر، لا تخصّ خصوم الإسلام من المشركين أو المنافقين دون غيرهم، بل إنّها تمتدّ لتشمل كذلك المؤمنين، المأمورين مع النبيّ ﷺ بذلك. ومن الأدلّة على هذا الشمول تعدّد وجوه القراءات المتعلّقة بالآية الكريمة: ﴿ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ﴾، كما يلاحظ الطبري فيقول:

"واختلفت القرّاء في قراءة ذلك، فقرأته عامة القراء: ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾ بالياء، يعني: ليتدبر هذا القرآن من أرسلناك إليه من قومك يا محمد. وقراءة أبو جعفر وعاصم"لِتَدَّبَّرُوا آياته" بالتاء، بمعنى: لتتدبره أنت يا محمد وأتباعك. وأولى القراءتين عندنا بالصواب في ذلك أن يقال: إنهما قراءتان مشهورتان."[28] فالتدبّر بهذا المعنى دعوة قرآنيّة عقليّة شاملة لجميع البشر، وانطلاقا من هذه الملاحظة، تتراءى لي أسئلة قد تبدو مستغربة عند بعضهم، لكنّي أطرحها هنا من باب الاستنتاج العلميّ، وأتركها للنقاش. إذا كان تدبّر القرآن مستحبّا للمسلم من الناحية الشرعيّة، حسب ظاهر النصّ وأقوال العلماء، أفلا يصبح

[27] تدبّر التدبّر: نايف الزهراني، الرابط:
https://vb.tafsir.net/tafsir12224/#.W_7YdttKjIV

[28] تفسير الطبري 21/ 190

فرضا، أو يكاد في عصرنا الحاليّ؟ فالحاجة اليوم إلى القراءة التدبّريّة وفوائدها أوضح من أن يُستدلّ عليها، خاصّة عند أهل الاختصاص في العلوم الشرعيّة وعلوم القرآن الكريم. ثمّ إذا كان التدبّر عمليّة ذات صبغة عقليّة، قائمة على الملاحظة والاستقراء، أفلا يُعتبر الانتباه إلى جميع الظواهر البيانيّة والبلاغيّة المتعلّقة باللغة القرآنيّة لونا من ألوان التدبّر المطلوب في عصرنا عند من يتصدّى لدراسة كتاب الله؟ أراني . على أيّة حال . من أنصار هذا الرأي، وأدعو إلى أن يصبح نهجا ثابتا في الدراسات القرآنيّة، سواء تعلّق الأمر بالمسلمين أم بغيرهم. و إليهم يتوجّه تساؤل علميّ يتعلّق خاصّ بالمستشرقين، ممّن يهتمّون بدراسة القرآن الكريم، وأخاطبهم في هذا المقام بالطبع بما أمرنا به ديننا من الاحترام والعدل: يصف القرآن رسالته بصلاحها لكلّ زمان ومكان، فهل وقع التفكير مثلا في إمكانيّة قراءة الخطاب القرآني الذي يحمل دعوة للتدبّر، على أنّه أيضا . بوجه من الوجوه . ردّ قرآنيّ لافت على بعض الاطروحات الحديثة، ونفي لشبهة التنافر أو التناقض التي ما تزال سمة غالبة في تاريخ الدراسات القرآنيّة الاستشراقيّة منذ نشأة الاستشراق إلى اليوم؟ يبدو هذا السؤال حقيقا بالطرح، جديرا بالنقاش، خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار ربط تلك الدعوة بردّ قرآنيّ آخر مفاده أنّ القرآن من عند الله، وليس من عند أحد من خلقه، بما فيهم الرسول الكريمﷺ. لأنّ العمل البشريّ محكوم بحتميّة وقوع النقصان والتخالف فيه. لم أجد ، على حدّ علمي ومراجعتي، في الدراسات الاستشراقيّة عامّة . والقرآنيّة منها خاصّة . عملا علميّا خالصا خاصّا بهذا التساؤل، فلعلّ الأمر يتغيّر في قادم السنين.

۞ ولنتأمّل الآن الآيات التي فيها تصريح بقيمة التدبّر، لنخلص إلى أنّها، وإن تشابهت في ظاهر مقصودها، فإنّها تتميّز بسمات بيانيّة وتفسيريّة، تفرّق بعضها عن بعض، و يمكن استخراجها بشيء من النظر. من ذلك . على سبيل الذكر لا الحصر . ما أشار له علماء القرآن وأكّده المحدثون منهم، من أنّ آيات التدبّر الأربع في القرآن نزلت في المنافقين من جهة والكفّار من جهة أخرى، وللمؤمنين أيضا وقسمها القرآن بينهم[29]، واللافت أنّهما فئتان معاديتان للدعوة والقرآن والنبوّة، وهذا كذلك بعدٌ يستحقّ النظر. كما يلفت الأستاذ منّاع القطّان الانتباه إلى دلالة الصيغة الصرفيّة للتدبّر، فهو فعل مجهد مضن لدلالة الوزن "تَفَعَّلَ" على التكلّف وبذل الجهد بقوله: "وجاءَ على صيغةِ التَّفعُّلِ، ليدلَّ

[29] تؤيّد التفاسير ذلك، فآيتان للمنافقين، وآية للكفار، وآية تشمل المؤمنين أيضا، لمزيد الشرح يرجى الاطلاع على تحليل آيات التدبّر.

على تكلُّفِ الفعلِ، وحصولِه بعد جُهْدٍ، والتَّدبُّرُ: حصول النَّظرِ في الأمرِ المتَدَبَّرِ مرَّةً بعدَ مرَّةٍ."[30]

التحليل التناسبيّ للآيات:

الآية الأولى:

النساء/82	﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلاَفاً كَثِيراً ﴾

ربط الآية بسياقها الخاصّ وما سبقها من آيات: عندما نتأمّل موقع هذه الآية، نجدها جاءت في سياق الحديث عن ذمّ أعمال المنافقين، الذي يبدأ من الآية 77 ويستمرّ إلى الآية 83، فبعد أن كشف الله أنّهم يبيّتون أمرا، ويضمرون للرسول ﷺ ما لا يظهرون:

النساء/81	﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلاً﴾

يأتي الخطاب القرآني مستنكرا ذلك الفعل، وكاشفا للنبي والمؤمنين ما يدور في خلدهم من شكّ في القرآن والعقيدة، كما كشفت الآية محور تلك الشكوك وهو أنّ القرآن من عند غير الله،[31] فلمّا كان السياق كذلك، ناسب أن يردّ على شكوكهم بحجّة عقليّة قويّة، تتمثّل في سموّه عن الوقوع في التفاوت في جودته أو التناقض فيه. يعبّر البقاعي عن هذا التلاحم بين الآيات مبيّنا أوجه التناسب:

"ولما كان سبب إبطانهم خلاف ما يظهرونه اعتقادُ أنّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رئيس، لا يعلم إلا ما أظهروه، لا رسول من الله الذي يعلم السر وأخفى؛ سبب عن ذلك على وجه الإنكار إرشاده من الاستدلال على رسالته بما يزيح الشك ويوضح الأمر، وهو تدبّر هذا القرآن المتناسب المعاني المعجز المباني، الفائت لقوى المخاليق، المظهر لخفاياهم على اجتهادهم في إخفائها، فقال سبحانه وتعالى دالاً على وجوب النظر في القرآن والاستخراج للمعاني منه: ﴿أفلا يتدبّرون﴾ أي يتأمّلون، يقال: تدبرت الشيء – إذا تفكرت في عاقبته وآخر أمره ﴿القرآن﴾ أي الجامع لكل ما يراد علمه من تمييز الحق من الباطل على نظام لا يختل ونهج لا يمل؛ قال المهدوي: وهذا دليل على وجوب تعلم معاني القرآن وفساد

[30] مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر 185

[31] المحرّر الوجيز 83/2

قول من قال: لا يجوز أن يؤخذ منه إلا ما ثبت عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومنع أن يتأول على ما يسوغه لسان العرب، وفيه دليل على النظر والاستدلال [...]"[32]

ويشير بن عاشور "أنّ الفَاء تَفْرِيعٌ عَلَى الْكَلَامِ السَّابِقِ الْمُتَعَلِّقِ بِهَؤُلَاءِ الْمُنَافِقِينَ أَوِ الْكَفَرَةِ الصُّرَحَاءِ"[33]، فضلا عن أنّ الآية تردّ على المنافقين، فالملاحظ أنّها الى بُدئتْ باستفهام إنكاريّ، يتناسب مع مقصد اللوم والدعوة للتفكّر، فهذا الأسلوب الذي يندرج ضمن علم المعاني يخدم مع ما يقتضيه السياق من لفت انتباه لعظم ما هو قادم من كلام، وهو يتناسب كذلك مع توسيع الدلالة، فهو يخبر تضمينا أنّ المنافقين لم يتدبّروا القرآن من جهة، ويدعوهم إلى التدبّر من جهة أخرى، فتأمّل اختيار هذا الضرب المخصوص من الإنشاء الطلبي، واستعماله بصورة يتناسب بها مع معنى اللوم والتوبيخ المتضمّن في الآية. وهي تكتسب قيمة دلاليّة عالية تضيف إلى المعنى العامّ للتدبّر خصيصة لافتة، تتبدّى في كونه وسيلة لدحض شبهة وقوع الاختلاف أو التناقض في كتاب الله، التي يردّدها خصوم الإسلام والقرآن منذ ذلك العهد، وما يزالون، وكأنّ هذا الخطاب القرآني ما يزال يخاطب عقول مخالفيه، فغدت بذلك دعوته لهم للتدبّر ضربا من المحاجّة العقليّة. ثمّ إنّه يوضّح لهم متحدّيا لهم بعلوّه على ما يعتري بقيّة الكتب من اختلاف، وهو معنى يبرز ويتجدّد بطرق وسياقات قرآنيّة متنوّعة، ويمكن استقراءه من آيات كثيرة، مثل آية سورة البقرة فنفي الريب تعبير آخر عن ذلك وشبيه بذلك قوله في مطلع سورة هود: فالإحكام ثمّ التفصيل ينفيان نفس الشبهة، وإن اختلف الأسلوب وتنوّعت طرائق التعبير القرآني عن هذا المعنى. وبما أنّ الأمر يتعلّق بمحاجّة عقليّة فقد صيغتْ بضرب آخر من أساليب الإنشاء، وهو الشرط، الذي يتوافق تركيبه ودلالته مع الاستدلال العقلي والاستنتاج المطلوبيْن في هذا السياق، لتعلّقه بالسبب والنتيجة أي بالشرط وجواب الشرط. وهذا دليل من بين أدلّة أخرى كثيرة على أنّ اختيار مواقع استعمال الأساليب، خبريّة كانت أم إنشائيّة، ثمّ طلبيّة أم غير طلبيّة لا يقع بالقرآن خبط عشواء، بل مختارٌ بعناية ودقّة، تبرز باستمرار توافق المقام والمقال وانسجام المباني بالمعاني.

وقد أسهب العلماء في شرح المقصود بالاختلاف، فربطه الزمخشري في هذا السياق بالإعجاز:

---

[32] نظم الدرر 5/339. 340

[33] التحرير والتنوير 5/137

"[...] لكان الكثير منه مختلفا متناقضا قد تفاوت نظمه وبلاغته ومعانيه، فكان بعضه بالغا حدّ الإعجاز، وبعضه قاصرا عنه يمكن معارضته، وبعضه إخبارا بغيب قد وافق المخبر عنه، وبعضه إخبارا مخالفا للمخبر عنه، وبعضه دالا على معنى صحيح عند علماء المعاني. وبعضه دالا على معنى فاسد غير ملتئم، فلما تجاوب كله بلاغة معجزة فائتة لقوى البلغاء وتناصر صحة معان وصدق إخبار، علم أنه ليس إلا من عند قادر على ما لا يقدر عليه غيره، عالم بما لا يعلمه أحد سواه".[34]

ويسلّط الراغب الأصبهاني في تفسيره الضوء على بعد آخر ، إذ يناقش المقصود "بالاختلاف":

"إن قيل: كيف قال: ﴿ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا ﴾، وما من كلام لعل فيه من الاختلاف ما في القرآن، فما من آية إلا وقد اختلف فيها الناس؟ قيل: لم يعْنِ بالاختلاف ما يرجع إلى أحوال المختلفين، لاختلاف تصورهم لمعناه، أو اختلاف نظرتهم، ولا الاختلاف الذي يرجع إلى تباين الألفاظ والمعنى والإيجاز والبسط، وإنما قصد إلى معنى التناقض، وهو إثبات ما نفى أو نفي ما أثبت، نحو أن يقال: زيد خارج، زيد ليس بخارج. والمخبر عنه والخبر والزمان والمكان فيهما واحد."[35]

ويكشف الرازي عن مدلول آخر لهذه الآية، يرتبط أيضا بالتدبّر، فهي تمثّل حجّة على صحّة النبّوّة:

"اعْلَمْ أَنَّ ظَاهِرَ الْآيَةِ يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ تَعَالَى احْتَجَّ بِالْقُرْآنِ عَلَى صِحَّةِ نُبُوَّةِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إذ لو تُحْمَلِ الْآيَةُ عَلَى ذَلِكَ لَمْ يَبْقَ لَهَا تَعَلُّقٌ بِمَا قَبْلَهَا الْبَتَّةَ، وَالْعُلَمَاءُ قَالُوا: دَلَالَةُ الْقُرْآنِ عَلَى صِدْقِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من ثلاثة أوجه: أحدها: فَصَاحَتُهُ. وَثَانِيهَا: اشْتِمَالُهُ عَلَى الْإِخْبَارِ عَنِ الْغُيُوبِ. وَالثَّالِثُ: سَلَامَتُهُ عَنِ الِاخْتِلَافِ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ [...]".[36]

كما ينبّه البقاعي في هذا السياق على معنى طريف من معاني الإعجاز وهي إخبار الله تعالى نبيّه عمّا يُسرّه له المنافقون، ووقوع هذا الكشف في القرآن الذي فيه يرتابون:

---

[34] الكشاف 540/1

[35]. تفسير الراغب الأصبهاني 1348/3، ومثله في التفاسير كثير، قارن مثلا: إعراب القرآن للنحّاس 228/1

[36] تفسير الرازي/مفاتيح الغيب 151/10

"ولما كان التقدير: فلو كان من عند غير الله لم يخبر بأسرارهم، عطف عليه قوله: ﴿ولو كان من عند غير الله﴾ أي الذي له الإحاطة الكاملة – كما زعم الكفار ﴿لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾ أي في المعنى بالتناقض والتخلف عن الصدق في الإخبار بالمغيبات أو بعضها، وفي النظم بالتفاوت في الإعجاز؛ فإذا علموا أنه من عند الله بهذا الدليل القطعي حفظوا سرائرهم كما يحفظون علانياتهم، لأن الأمر بالطاعة مستوٍ عند السر والعلن؛ والتقيد بالكثير يفيد أن المخلوق عاجز عن التحرز من النقص العظيم بنفسه، وإفهامه – عند استثناء نقيض التالي – وجود الاختلاف اليسير فيه تدفعه الصرائح."[37]

بقي أن أشير إشارة أخيرة إلى ارتباط الآية بالسورة، فسورة النساء سورة مدنيّة ولذلك ورد فيها ذكر المنافقين، الذين وجدوا فقط بالمدينة، أمّا مكّة فلا حاجة للمشركين فيها بإخفاء عداوتهم للنبي وإنكارهم للقرآن، وقد جاهروا بذلك. ويتبادر إلى الذهن سؤال آخر: ما علاقة التدبّر بموضوع ومقاصد سورة النساء؟ المعلوم أنّ هذه السورة حافلة بأحكام تنظّم أحوال المجتمع الإسلامي الناشئ، فهي تبدأ بالإشارة إلى حكم الله في خلق البشر وتكاثرهم، وتتدرّج إلى الوالدين والعائلة والمجتمع فتسلّط الضوء على أحكام النساء والمواريث والفئات المستضعفة مثل اليتامى، وتنبّه على عدم التعدّي على حقوق تلك الفئات. وهي أحكام مستجدّة على المؤمنين حينذاك، لذلك تحتاج كلّها إلى نوع من التدبّر،يعينهم على فهمها. وبهذا المعنى يصبح التدبّر لا فقط عنصرا عابرا في سورة النساء، بل هو رسالة محوريّة فيها، تتحرّر من سياقها الخاصّ المتّصل بالمنافقين، لتكتسب بعدا عامّا يخاطب المؤمنين كذلك.

وإذا انطلقنا من هذا الافتراض، فيمكن على ما أرى ـ بوجه من الوجوه ـ استقراء الدعوة إلى التدبّر حتّى من آية الاستهلال. ذلك أنّها هنا تتميّز بخصيصتيْن: أولاهما توجيه الخطاب فيها إلى كافّة البشر، وثانيتهما أنّها تقرن دعوتهم إلى تقوى الله بتذكيرهم بآية من أعظم آياته وهي خلقهم من نفس واحدة وتكاثرهم، وبثّهم في الأرض. فالسورة منذ انطلاقها محفّزة على التذكّر والتفكّر وهي معان تتآخى مع التدبّر في حقل دلاليّ واحد.

[37] نظم الدرر 5/340.341

❁ وأمّا الآية الثانية المتعلّقة بالتدبّر:

المؤمنون/68	﴿ أَفَلَمْ يَدَّبَّرُواْ ٱلْقَوْلَ أَمْ جَآءَهُمْ مَّا لَمْ يَأْتِ آبَآءَهُمُ ٱلأَوَّلِينَ ﴾

نزلت هذه الآية في المشركين، وهو ما يتناسب مع ورودها في سورة مكيّة. وهي الفئة الثانية التي تتوجّه إليها الدعوة إلى التدبّر.

فيُلاحظ فيها أوّلا من الناحية النحويّة البلاغيّة أنّ فعل التدبّر قد جاء بصيغة الماضي، رغم اشتراك هذه الآية مع سابقتها في الاستفهام الانكاريّ. كما أنّ القرآن الكريم لم يُذكر باسمه المعروف، بل بلفظ آخر هو القول. فما تفسير ذلك؟

طبقًا للمنهج التناسبي فالإجابة على هذا السؤال تتأتّى من خلال ربط هذه الآية بماسبقها من الآيات، فيتبيّن أنّ السياق العامّ الذي جاءت فيه يتعلّق بتبكيت الله للمشركين وهم بين يدي العذاب الأخروي جزاء إعراضهم عن القرآن الكريم وتجاهلهم له، الذي يعود ليمثّل محور الخطاب القرآنيّ بداية من الآية 62، أي قبل ستّ آيات من الآية موضوع البحث. ثمّ يتضح هذا الترابط لاحقًا بإعادة ذكر القرآن في الآيتين السابقتين أي 66 إلى 67. وبذلك يتوضّح أوّلا الدليل على أنّه المقصود من لفظ "القول" للتعلّق النصّي والمعنويّ بين الآيات المذكورة،[38] الذي ينجلي بواسطته سبب وقوع تصريف فعل التدبّر في الماضي، ذلك أنّ السياق السردي لهذه المعاني والأحداث قد جاء بصيغة الماضي، رغم احتوائها على وصف أحداث متعلّقة بالمستقبل الأخروي، وهو ما يفيد تأكيدا إلاهيّا بتحقّق الوقوع، وكأنّ ذاك المشهد أمام الناظرين.

إضافة إلى ذلك كلّه، تتميّز هذه الآية عن سابقتها بإخبارها عن عذر يكرّره أقوام سابقون مع الأنبياء، وهو تأثّرهم بآبائهم الأوّلين وما يوافق معتقدهم. وكأنّ هذا النصّ القرآنيّ يتوجّه للناس أجمعين عبر أسلوب التضمين، ليحذّر من آفة التقليد، إذا كان حائلا بين المرء وبين الحقّ واتّباع الهدى.

أمّا من ناحية خصائص الألفاظ المستعملة في هذه الآية، فلا بدّ للمدقّق فيها من طرح سؤال تبادر إلى الذهن: لماذا استعمل في الآية فعلان "مترادفان": جاء وأتى؟

[38] تفسير البغوي 370/3 ،تفسير النسفي 474/2

من المفيد أوّلا التنبيه على حقيقة أحسبها ذات أهميّة بالغة بين يديْ هذا السؤال: فقد أبرز كثير من أعلام البلاغة والتفسير على امتداد التاريخ الإسلاميّ من علماء والنحويّين و والقرآن، رغم الاختلاف على مفهوم الترادف، أنّ اللفظة القرآنيّة منتقاة على نحو دقيق مخصوص، حتّى تؤدّي معنى معيّنا، هو الآخر محكوم بنفس الدقّة والخصوصيّة. وأنّها ـ وإن بدت متشابهة مع غيرها ـ فإنّها تتميّز عن شبيهاتها من حيث تناسب دلالتها مع تأدية معنى خاصّ مطلوب في سياق كل آية، أو طائفة من الآيات. فالمتأمّل فيها يستشف دعوة قرآنيّة صريحة في آيتيْن إلى مثل هذا التفريق بين الألفاظ التي تبدو في ظاهرها متشابهة أو متماثلة،[39] لأنّ لذلك آثارًا بارزة في التفريق بين المفاهيم، وهي أيضا دعوة ضمنيّة لعدم استبدال بعض المفردات ببعض، حرصا على تأدية المطلوب على وجه الدقّة. وقد أسهب في هذا المبحث كثير من علماء البلاغة والقرآن، قديما وحديثا. ينّوه الجرجاني إلى هذه الخصيصة في اللفظ القرآني متحدّيا: "إن شككْتَ، فتأملْ: هل ترى لفظة منها بحيثُ لو أُخِذَتْ من بين أَخواتها وأُفردتْ، لأَدَّت منَ الفصاحة ما تُؤدِّيه وهي في مكانها منَ الآية؟"[40]

"وفي القرآن الكريم دعوة إلى عدم استخدام لفظة مكان لفظة، مراعاة للمواقف بكل أطرافها، وهو الكتاب الذي يعدّ الكلمة شكلا حضاريا راقيا، وسوف يؤكد لنا التطبيق أن لا ترادف في القرآن."[41]

استقصى الأستاذ فاضل السامرائي هذا السؤال، ووصل إلى ما يلي:

"القرآن الكريم يستعمل أتى لما هو أيسر من جاء، يعني المجيء فيه صعوبة بالنسبة لأتى ولذلك يكاد يكون هذا طابع عام في القرآن الكريم ولذلك لم يأت فعل جاء بالمضارع ولا فعل الأمر ولا اسم الفاعل. ﴿فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا﴾ (مريم 27) الحمل سهل لكن ما جاءت به أمر عظيم . قال: ﴿فَإِذَا جَاءتِ الصَّاخَّةُ﴾ (عبس 33) شديدة، ﴿فَإِذَا جَاءتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾ (النازعات 34) شديدة، ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ (الغاشية 1)، لم يقل أتتك الغاشية وإنما حديث الغاشية لكن هناك الصاخّة جاءت والطامّة جاءت. ﴿إِذَا جَاء نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر 1) هذا أمر

[39] سورة الحجرات: آية 14 وسورة البقرة: آية 104

[40] دلائل الإعجاز 45

[41] جماليات المفردة القرآنية 58

عظيم هذا نصر لا بسهولة وإنما حروب ومعارك،﴿هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا ﴾ (الإنسان 1) هذا نائم يمر عليه وهو لا يعلم، لم يكن شيئاً مذكوراً أي قبل وجوده لم يكن شيئاً مذكوراً قسم قال لم يكن شيئاً لا مذكوراً ولا غير مذكور، وقسم قال كان شيئاً ولم يكن مذكوراً كان لا يزال طيناً لم تنفخ فيه الروح، ففي الحالتين لا يشعر بمرور الدهر فاستعمل أتى[...]"[42]

فإذا انطلقنا من هذا التفريق القرآنيّ الدقيق للفعلين المستعملين ﴿ جَآءَهُمْ ﴾ و ﴿ لَمْ يَأْتِ﴾، يتبيّن أوجه التناسب الممكنة في هذا الاستعمال، ويذهب الفكر فيها كلّ مذهب. فكأنّ إرفاق القرآن بالفعل الأوّل إشارة إلى ثقله وعسره وتأثير وقعه على الكفار، أو هم هكذا يتصوّرونه، وكأنّ تخصيص الفعل الثاني لهم تلميح على بساطة فكرهم ومعتقدهم مقارنة بالقول الثقيل الذي يمثّله القرآن. وقد يحتمل هذا الأمر وجها آخر للترابط مفاده أنّ التجديد، الذي يتمثّل هنا في القرآن، عادة ما يرتبط بالجهد والمشقّة، بينما هم يميلون إلى التقليد وهو أمر يسير، باتباع آبائهم الأوّلين. وتلك سنّة مازالت سارية في نفوس البشر منذ خلقهم الله، وكثر انتقاد القرآن لها.

❁ **أمّا الآية الثالثة من آيات التدبّر**، إذ يقول تعالى:

ص/29	﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ ﴾

فأحسب أنّها جوهرة هذا العقد، لما توحي به من تناسق بين المبنى و المعنى، والتركيب والترتيب، والفصل والوصل. فلنتأمّل مظاهر هذا الانسجام:

فأمّا أوّل ما يميّزها من حيث المعنى، فهو بلا شكّ إبراز وظيفة دلاليّة جديدة لمعنى التدبّر، فهو إن ورد في الآيات السابقة في سياق النصح والوعظ أو التبكيت للمشركين والمنافقين، فإنّه يرقى في هذا المقام

[42] انظر هذا الشرح تحت موقع البيان القرآني، للدكتور فاضل صالح السامرائي، الذي يُعتبر من أهمّ إعلام مبحث التناسب البياني والبلاغي للقرآن الكريم، وله في ذلك عدّة كتب منها "التعبير القرآني":
http://albayanalqurany.com/clause/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%82-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D8%AA%D9%89-%D9%88%D8%AC%D8%A7%D8%A1-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85-2/

مرتبة عليا، يستحيل معها غاية من إحدى غايتيْن أساسيّتيْن من إنزال القرآن وهما التدبّر والتذكّر، حيث يشرح ابن عبّاس: "﴿كِتَابٌ﴾ هَذَا كتاب، ﴿أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ﴾ أنزلنَا جِبْرِيل بِهِ إِلَيْك، ﴿مُبَارَكٌ﴾ فِيهِ الْمَغْفِرَة وَالرَّحْمَة لمن آمن بِهِ، ﴿ليدّبّروا آيَاتِهِ﴾ لكَي يتفكروا فِي آيَاته ﴿وليتذكر﴾ لكي يتعظ ﴿أولُوا الْأَلْبَاب﴾ ذَوُو الْعُقُول من النَّاس".[43]

وينضاف إلى ذلك مظهر من مظاهر البلاغة القرآنيّة، قد لا يبدو للناظر من أوّل وهلة، وهو جمع الآية بين أمور عظيمة تنسجم مع عظمة القرآن بواسطة أسلوب الإيجاز، الذي يعدّه البلاغيّون من أبواب علم المعاني. فقد ذُكر المنزَل ﴿كِتابٌ﴾، والمنزِل ﴿أَنْزَلْناهُ﴾، والمنزَل إليه ﴿إِلَيْكَ﴾ وغاية النزول ﴿لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ﴾ ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبابِ﴾،وهي اللتي تمثّل أهمّ أبواب العقيدة وقواعد الإيمان. وممّا يتناسب مع سياق العظمة الذي يتّسم به جوّ الآية ومكوّناتها مخاطبة الله تعالى للنبي ﷺ بصيغة المتكلّم جمعًا ﴿أَنْزَلْناهُ﴾، الموحية بجلال منزل القرآن.

ومن أبلغ علامات التناسب في هذه الآية انفتاحها .كما سبقت الإشارة في مقدّمة هذا المبحث . على وجوه متعدّدة في القراءات كما بيّن ذلك المفسّرون. وفضلا عمّا ذكرناه من تأييد الطبري للقراءتيْن، بالإسناد للغائب ﴿لِيَدَّبَّرُوٓاْ﴾، أو المخاطَب ﴿لِتَدَّبَّرُوا﴾، يضيف آخرون وجوها أخرى، مثل ابن عطيّة:"[...] وقرأ أبو بكر عنه: ﴿لِتَدَبَّرُوا﴾ بتخفيف الدال، أصله: ﴿تَتَدَبَّرُوا﴾"، فقد يُستخرج من الآية ماهو أكثر من ذلك: "وظاهر هذه الآية يعطي أن التدبر من أسباب إنزال القرآن، **فالترتيل إذا أفضل من الهذ، إذ التدبر لا يكون إلا مع الترتيل**، وباقي الآية بيّن."[44]

ويتبيّن من هذا التنوّع تناسق التعدّد في القراءات مع تعدّد المخاطَبين في الآية، وهو ما ينسجم مع شموليّة الدعوة إلى التدبّر، بتوجّهها للمنافقين والمشركين والمؤمنين في الآن نفسه. ويتّضح بذلك نهائيّا أن التدبّر بمفهومه القرآني إنّما يتميّز بطابع إنساني شامل، لأنّه عمل عقليّ، يشترك في المؤمنون والمكذّبون.

وتؤيّد بنية الجملة هذه الدلالة في تناسق ظاهر لاكتسابها صيغة تعليليّة بلام التعليل. .
وبإلقاء نظرة على التناسق التركيبي، فيتبيّن من خلال تظافر مكوّنات الجملة القرآنيّة لتأدية هذا الغرض،

[43] تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: 455

[44] المحرّر الوجيز 503/4

ويتبيّن هذا من خلال إعراب الآية: ﴿كِتابٌ﴾: خبر لمبتدأ محذوف تقديره هذا، ﴿أَنْزَلْناهُ﴾: ماض وفاعله ومفعوله والجملة صفة لكتاب، والجملة الاسمية استئنافية لا محلّ لها، **توحي في ظاهرها بالفصل، لكنّ تعلّق متعلّقيْن بها دليل من جهة أخرى على الوصل**، ﴿إِلَيْكَ﴾: متعلّقان بأنزلناه، ﴿مُبارَكٌ﴾: خبر ثان، ﴿لِيَدَّبَّرُوا﴾: اللام لام التعليل ومضارع منصوب بأن المضمرة، **وهي كذلك تصل بين جمل الآية**، ﴿آياتِهِ﴾: مفعول به، ﴿وَلِيَتَذَكَّرَ﴾: إعرابه مثل ليدّبّروا، والمصدر المؤوّل في محل جرّ باللام وهما متعلّقان بأَنزلنا، أُولُوا فاعل مرفوع بالواو ﴿الْأَلْبابِ﴾ مضاف إليه والكلام عُطِف على ما قبله، **العطف الواوي يدلّ على الوصل**.[45]

يتبيّن من الصيغة الاسميّة التي رُكّبتْ بها الجملة أنّها موضوعة بعناية فائقة، تتناسب مع إبراز القرآن كمحورها الأساسي، وذلك من خلال حذف المبتدأ، وتصدّر الخبر الذي هو الكتاب للجملة. وينجلي أثر هذا الفرق في التناسب مع السياق، إذا قارنا هذه الآية بشبيهاتها، التي يتغيّر فيها التركيب بتغيّر السياق ونقطة الاهتمام فيه. كما في هذه الآية:

41/الزمر	﴿**إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَابَ** لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ﴾

مركز الثقل المعنويّ في هذه الآية هو الهداية، والقرآن عنصر فيها والمؤدّي إليها، لذلك جاءت الآية بهذه الصيغة المختلفة، ونتج عن ذلك اختلاف تركيب الجملة وترتيب الألفاظ.

[45] التبيان في اغراب القرآن للعكبري 1100/2، إعراب القرآن لقاسم دعاس 3 /124 [بتصرّف]، مع ملاحظاتي اللتي تتخلّل الإعراب. وهي هنا مبيّنة بلونها **الأسود الداكن** لتمييزها. كما يمكن مراجعة الإعراب في الموقع التالي:

الرابط:

http://quran.ksu.edu.sa/tafseer/eerab/sura38-aya29.html

تزداد قيمة القرآن وضوحا في آية سورة ص بسمتيْن أخرييْن، إحدهما: بتكثيف حضوره وذكره فيها أربع مرّات، على قصر الآية نسبيا وقلّة ألفاظها: ﴿**كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ** إِلَيْكَ **مُبَارَكٌ** لِّيَدَّبَّرُوٓاْ **آيَاتِهِ** وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ﴾.

أمّا الأخرى فبإيراد صفة البركة في القرآن وهي نتيجة للتدبّر وأثر من آثاره، وإسنادها للقرآن على الصيغة الاسميّة، لتمثّل البركة صفة له واسما في الآن نفسه، ما يفيد ثبوت تلك الصفة فيه. ۞يتبادر إلى الذهن سؤال آخر يرتبط بترتيب ألفاظ هذه الآية المدهشة، فلماذا سبق التدبّر التذكّر بوصفهما غاية الوحي؟ ظاهر الآية يوحي بترتيب مقصود يتناسب أوّلا مع التسلسل الزمنيّ لهاتين العمليّتيْن العقليّتيْن: فالتذكّر لا يكون ممكنا إلاّ مع ما سبق علمه أو إدراكه، والقرآن حافل بهذه الدلالة. أمّا التدبّر فيمثّل المرحلة الأولى، بما أنّه يؤدّي إلى إعمال العقل فيما لم يسبق التفكير فيه. ويزداد هذا الوجه من تناسب الترتيب مع تخصيص الآية للمتذكّرين بصفة مادحة تمدحهم ضمنيّا وتصفهم برجاحة العقل والحكمة وهي: ﴿أُوْلُو ٱلأَلْبَابِ﴾، فكأنّ التدبّر مقصود لعامّة الناس من المؤمنين ولغيرهم، بينما التذكّر للموعظة لفئة خاصّة يهبها الله تلك النعمة.

الآية الرابعة والأخيرة من آيات التدبّر.

محمّد/24	﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾

۞ إذا ربطنا الآية بإطارها السياقيّ في السورة، نجدها وردت في سورة محمّد التي تمثّل استعراضا ثنائيّا يراوح بين وصف أحوال الفئتيْن المتقابلتيْن هذه الآية، وهما المؤمنون من جهة، والكفار والمنافقون وأصحاب القلوب المريضة من أخرى، خاصّة من خلال التطرّق إلى موضوع الجهاد الذي مثّل محور السورة. وتتمّ تلك المراوحة بموازنة لافتة بين الحديث عن إحداهما ثمّ الأخرى، وهكذا دواليْك. ونستطيع أن نستشفّ أنّ هذا منهج عامّ ومقصود في السورة، انطلاقا من أوّل آيتيْن:

محمّد/1	﴿ **ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ** وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴾
47/02	﴿ **وَٱلَّذِينَ آمَنُواْ** وَعَمِلُواْ ٱلصَّالِحَاتِ وَآمَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ﴾

فهي تمثّل وصفا شاملا للفريقين، يستمرّ في تناغم وتوازن من البداية إلى النهاية، وهو ما يتناسب أيضا مع المقصد العامّ للسورة، الذي ينصبّ حول تثبيت الرسولﷺ والمؤمنين في القتال والتفريق الواضح بين الفئتيْن، وكشف ضلال الفئة الضالّة والردّ عليها. وتتناول السورة أعمال الفئة الضالّة أي الكفار ثمّ المنافقين، فتصف صدّهم عن سبيل الله، وعذابهم المرتقب في الآخرة، وكذا تفعل مع المؤمنين فتصف أعماهلم وتقوم بتسليتهم على الهزيمة في أحد. ويتخلّل كل ذلك توجيه خطاب لهما وللرسول ﷺ، ووصف للجنّة ونعيمها، والنار وجحيمها. وبذلك يتبيّن أنّ هذه الثنائيّة تمثّل الخيط الناظم الذي يحكم كامل السورة في إتقان فريد.

ويستمرّ ذلك إلى أن تأتي الآية التي بين أيدينا، والتي فيها توبيخ للذين ضلّوا السبيل على عدم تدبّرهم للقرآن، وتظهر علاقتها بما سبقها من آيات من خلال التحامها مع الآيات الأربع السابقة لها، لأنّها استمرار لوصف أحوال المنافقين ذوي القلوب المريضة، الذين لم يلج الإيمان ولا القرآن إلى قلوبهم، وتقريع لهم على التهرّب وعدم الصدق والإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام. وتتصاعد وتيرة التوبيخ بلعن الله لهم ورميهم بالصمم والعمى، فتأتي هذه الآية متناسبة مع هذا السياق حيث تمثّل قمّة التعجّب من حالهم والتشنيع بهم والاستغراب لإعراضهم عن الحقّ وهو بائن لهم.

التناسب البلاغي والبيانيّ: عند التدقيق في الخصائص البلاغيّة والإعرابيّة لهذه الآية، يمكن استقراء السمات التالية:

۞افتُتحت بأسلوب انشائي، يشدّ الانتباه ويتناسب مع التعبير عن التعجّب وهو الاستفهام الإنكاريّ، واللافت أنّه كان من الممكن الاكتفاء بالهمزة كحرف استفهام إنكاري، مصحوبةً بلا النافية، لكنّ الصيغة أتت بحرف استئناف بينهما فأصبحت [أَفَلا]، وبيّنٌ ما لاجتماع هذه الحروف الثلاثة من الوقع في النفس، وأثر للتنبيه والتعبير عن الاستنكار، وهو الغرض المحوريّ في الآية.

۞ زمن تصريف الفعل: ورد نفي فعل التدبّر عن الفئة الضالّة في صيغة المضارعة «يَتَدَبَّرُونَ»، وهو في العربيّة يفيد التعبير عن الحاضر، وقد يشمل الاستقبال. فكأنّ هذه الآية تعبّر عن حالة ميؤوس من اتعاظها وتدبّرها لا حاضرا ولا مستقبلا.

۞ البيان: ترسيخا لهذا المعنى و توكيدا له، يبلغ التناسب البياني ذروته عبر الطريقة اللتي صوّرت بها الآية قلوب تلك الفئة تصويرا فنّيا بليغا، وذلك اعتمادا على أسلوب بيانيّ متمثّل في استعارة الأقفال للقلوب، تشبيها لها بالصناديق، فكأنّها مقفلة لا يدخلها نور أو هواء، كذلك قلوبهم مقفلة لأنّ تدبّر القرآن لا يدخل إليها.

۞ التنكير: يتفطّن المدقّق فيسأل، لماذا وردت القلوب في صيغة التنكير؟

يدقّق الزمخشري في هذا السؤال في تفسيره فيقرّر:

" فإن قلتَ: لم نُكّرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت: أمّا التنكير ففيه وجهان: أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك، أو يراد على بعض القلوب: وهي قلوب المنافقين"[46]، وينقل الرازي قوله في هذا الشأن مرجّحا: " وَنَحْنُ نَقُولُ التَّنْكِيرُ لِلْقُلُوبِ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى الْإِنْكَارِ الَّذِي فِي الْقُلُوبِ.[47]

۞ الإضافة: يستتبع الكلام عن التنكير تساؤلا منطقيّا عن سبب ورود لفظ الأقفال مضافا للضمير، بينما هو مُسند للقلوب اللتي جاءت نكرة، المتوقّع هو صيغة تساوي بين الاثنيْن: [عَلَىَ قُلُوبٍ أَقْفَالٌ]. يرى الزمخشري أنّ الإضافة هنا جاءت لتأكيد تخصيص تلك الأقفال لتلك القلوب، فهي ما

[46] الكشّاف: 326/4

[47] مفاتيح الغيب: 56/28

جُعلت إلاّ لها: "وأمّا إضافة الأقفال، فلأنه يريد الأقفال المختصّة بها، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. وقرئ: إقفالها، على المصدر".[48]

۞ البنية التركيبيّة: عند تحليل جمل الآية نلاحظ . فضلا عن الاستفهام الإنكاريّ في نصفها الأوّل الذي هو جملة استئنافيّة، بروز الجملة الاسميّة في نصفها الثاني، معطوفة على ما قبلها، في صيغة غريبة مفاجئة، بتقديم خبرها عَلى ﴿قُلُوبٍ﴾ ، مع تنكيره، وتأخير مبتدئها ﴿أَقْفالُها﴾ مع إضافته وتعلّق أحدهما بالآخر. لكأنّ هذا القلب في الجملة بالتقديم والتأخير أتى ليعكس الانقلاب الحاصل في المعتقدات ومفاهيم الحقّ والباطل لدى الفئة الضالّة! لكأنّ القرآن يقرّب لقارئه صورتها الحقيقيّة، بتوظيف لمسات بلاغيّة متنوّعة تخدم كلّها غرضا تصويريّا واحدا.

وينضاف إلى ذلك ملمح دلاليّ لافتٌ لا يغفل عنه متدبّر: وهو أنّ صيغة الآية بهذه الطريقة قد وضعت معادلة ضمنيّة مفادها أنّ عدم التدبّر يساوي قلوبا مقفلة بالكفر والضلال، بل شديدة الإقفال. ويعني ذلك استتباعا أنّ التدبّر معناه انفتاح القلوب على الإيمان، فانظرْ جمال هذا التناسب والتناسق في المبنى والمعنى.

انتقاء الألفاظ: عندما نزيد التأمّل في الكلمات المستعملة في الآية، نتفطّن إلى ظاهرة أخرى تدعو للتساؤل، فيما يتعلّق بالدلالة أو الدلالات المحتملة. وقد أجمع علماء البلاغة والتفسير أنّ استعمال اللفظة القرآنيّة لا يكون اعتباطيّا أو بدون غرض معلوم، بل متعلّق بالمعنى أو المعاني المرادة. وليس هذه الملاحظة نظريّة أو تقريبيّة، بل يثبتها التحليل العلميّ الدقيق لبحر من الأمثلة القرآنيّة، يكاد لا يُحصى.

وينتج عن ذلك قاعدة معرفيّة، تجب مراعاتها، عند من يتناولون النصّ القرآني بالبحث، وهي ضرورة البحث عمّا يُعبَّر عنه في العلوم الشرعيّة بمصطلح "الحكمة" من وراء ورود كلّ لفظ بعينه في القرآن الكريم، أي السبب أو العلّة الكامنة وراء انتقاء كلمة دون أخرى، مع أنّ اللغة العربيّة تحفل ببحر زخّار من المتقارب والمتشابه والمترادف من المفردات. ومن هنا تتجلّى أكثر قيمة علم التناسب القرآنيّ، فهذا الاستقصاء الدقيق للفروق بين الألفاظ وللسبب وراء اختيارها دون غيرها، الذي يزاوج بين علوم البلاغة ودراسة القرآن، يمثّل بابا بارزا من أبواب ذلك العلم، ويفتح فيه مجالا رحبا للتدقيق والتحقيق. فاللفظ

[48] الكشّاف: 326/4

في القرآن، ولو كان حرفا، هو الفاصل والمحدّد في المعنى أو المعاني المراد تأديتهُ أو تأديتها حسب ما يقتضيه سياق الآية أو السورة. و قدْ يذهب المجتهد في استكناه ذلك الارتباط الوثيق بين تلك العناصر الثلاثة ـ أي اللفظ والمعنى والسياق ـ كلّ مذهب، وينتهي بعد الدرس إلى قاعدتيْن بارزتيْن، نجد أثرهما في كتب التفسير والبلاغة:

الأولى: إمّا أن يكون المراد من اختيار لفظ دون آخر، أنّه ورد ليؤدّي معنى دقيقا محدّدا مخصوصا ويفرّقه عمّا يناسبه أويقاربه أويشاكله من المعاني، أو ربّما ليزيد فيها مقدارا معيّنا، وذلك مراعاة لما يقتضيه السياق والمقام، مثال ذلك قوله تعالى في الآية 78 من سورة النساء: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾، فهو لم يقل مثلا: [يَلْحَقْكُم الموت]، رغم تقارب معنى الفعليْن، لأنّ اللحوق لا يقتضي أنْ يكون الملحوق به هاربا من لاحقه بالضرورة، بينما الإدراك يتضمّن أنّه يفرّ ممّن يسعى وراءه. وبذلك فقد انسجم مع سياق عامّ، وهو حقيقة هروب الإنسان من الموت وحتميّته،وأيضا مع السياق الخاصّ في السورة، إذ أنّ الآية تخاطب المنافقين الذين يتهرّبون من قتال المشركين. فكأنّ الكلمة المنتقاة أتت لتخبر أيضا عن هروبهم.

الثانية: وإمّا أن يكون المراد من انتقاء لفظ معيّن هو العكس من ذلك، أي أن يكون الهدف من وراء الاختيار اللفظي هو الشمول والتعدّد، لا التخصيص والتفرّد. فيأتي اللفظ القرآنيّ في هذه الحالة حاملا لعّدة معان محتملة، وقد تكون مرادة كلّها، وينسجم كلّ واحد منها ـ على نحو معيّن ـ مع وجه من وجوه التفسير، بل ويزيده رونقا بلاغيّا، واكتنازا دلاليّا. مثال موجز لذلك قوله تعالى في الآية 73 من سورة الواقعة: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِّلْمُقْوِينَ﴾، فقد جاءت هذه الكلمة المختارة بدقّة لتحمل دلالات متعدّدة، توافق اللسان العربيّ: ذلك أنّ "المقوي" تُطلق على المسافر، وعلى المستمتع، وعلى الجائع[49]. وهي معان تتناسب كلّها مع سياق المعنى العامّ المقصود في الآية، وهو تذكير المشركين خاصّة والنّاس عامة بالنعم التي خلقها الله تعالى وسخّرها لهم، ومنها النّار. وانعكس هذا الثراء الدلالي على توسيع المجال أمام تعدّد الأفهام في التفسير، ونرى ذلك في هذا المثال، إذْ ذهب ثلّةٌ منهم ـ مثل ابن عبّاس ـ

[49] لسان العرب: 15 /206 .209، مادة [قَوَا]

إلى المعنى الأوّل: "مَنْفَعَة لِّلْمُقْوِينَ: الْمُسَافِرِين فِي الأَرْض القواء وَهِي القفر"[50]، بينما رأى مجاهد أنّها "لِلْمُسْتَمْتِعِينَ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ"[51]، أمّا البقاعيّ فيرجّح دلالة الجوع مع ربطها بمعناها الأوّل، فيقول في شرح لافت: ﴿لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي الجياع الذين أقوت بطونهم – أي خلت – من الفقر والإغناء من النازلين بالأرض القواء، والقواء بالكسر والمدّ أي القفر الخالية المتباعدة الأطراف البعيدة من العمران، وكل آدمي مهيأ للقواء فهو موصوف به وإن لم يكن حال الوصف كذلك[...]"[52].

يتبيّن إذن من هذا العرض السريع، أنّ كل كلمة قرآنيّة، فعلا كانتْ أم اسما ، أم حرفا، تلعب في الجملة أو الآية القرآنيّة دورا مخصوصا منوطا بها، يمكن اختصاره ـ على نحوٍ ما ـ في ثنائيّة تحت مصطلح **التحديد والتعديد** الدلاليّيْن. فقد يكون حرف واحد من حروف العطف مثلا سببا في ظهور أكثر من وجه لتصريف الآية وتوجيهها. فإذا عدنا إلى آيتنا الأخيرة في التدبّر": ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾، فإنّ حرف العطف أَمْ الذي عُطفت به الجملة الاسميّة على الاستفهام الانكاريّ السابق لها، أمرٌ يسترعي الانتباه ويدعو للبحث. ذلك أنّ أغلب المفسّرين قد ذهبوا إلى أنّ هذا الحرف قد جاء بمعنى "بَلْ" وهي حرف عطف يفيد الإضراب، لكنْ لماذا لم يستعمله القرآن في هذا الموضع؟ لا أدّعي الوصول إلى جواب نهائيّ في ذلك، لكن تتبّع السياق والدلالة يثبت أنّ حرف العطف المختار أم يؤدّي إلى دخول الجملة الاسميّة أيضا تحت لواء الاستفهام، فيصبح تساؤلا إن كانت قلوب المنافقين والمشركين مقفلة، لأنّها لا تتدبّر القرآن. أمّا إذا صُرف المعنى إلى الإضراب، فتتحوّل دلالته إلى تقريريّة، أي أنّ الله تعالى يخاطبهم: بل أنتم بالفعل قلوبكم مقفلة لأنّكم لا تتدبّرون القرآن. والحقيقة أنّك إذا تدبّرت المعنييْن في هذه الآية، ألفَيْتهما جائزيْن لغةً ومنطقًا. فنخلص من ذلك إلى أنّ استعمال هذا الحرف المخصوص في هذا الموضع، هو متناسبٌ تمام التناسب مع أمريْن: أوّلهما تعديد وجوه الفهم والتفسير كما أسلفنا، فكلا الدلالتيْن مرادٌ فيها. وثانيهما التناسق مع السياق العامّ للآية الذي يعبّر عن التعجّب من حال تلك الفئة التي تعرض عن القرآن، فجاءت الجمل غريبة عجيبة، بين التنكير والإضافة، والتقديم والتأخير، لتكتمل غرابة الصورة هنا بحرف عطف غريب يجمع بين أسلوب الاستفهام الإنكاري والإضراب. لكأنّ

---

[50] تفسير ابن عبّاس: ، ونجد هذا المعنى أيضا عند كثيرين، انظر مثلا: 455 تفسير البغوي 21/8

[51] تفسير مجاهد: 645

[52] نظم الدرر: 19/ 230

كلّ ما في هذه الآية ينقل يرسم لنا شيئا من تلك الصورة. يعلّق الرازي حول توجيه الآية فيقول:

"[...] فَإِذَنْ هُمْ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، إِمَّا لَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ فَيَبْعُدُونَ مِنْهُ، لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَعَنَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ عَنِ الْخَيْرِ وَالصِّدْقِ، وَالْقُرْآنُ مِنْهُمَا الصِّنْفُ الْأَعْلَى بَلِ النَّوْعُ الْأَشْرَفُ، وَإِمَّا يَتَدَبَّرُونَ لَكِنْ لَا تَدْخُلُ مَعَانِيهِ فِي قُلُوبِهِمْ لِكَوْنِهَا مُقْفَلَةً، تَقْدِيرُهُ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ القرآن لكونهم ملعونين معبودين، أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالٌ فَيَتَدَبَّرُونَ وَلَا يَفْهَمُونَ، وَعَلَى هَذَا لَا نَحْتَاجُ أَنْ نَقُولَ أَمْ بِمَعْنَى بَلْ، بَلْ هِيَ عَلَى حَقِيقَتِهَا لِلِاسْتِفْهَامِ وَاقِعَةٌ فِي وَسَطِ الْكَلَامِ وَالْهَمْزَةُ أَخَذَتْ مَكَانَهَا وَهُوَ الصَّدْرُ، وَأَمْ دَخَلَتْ عَلَى الْقُلُوبِ الَّتِي فِي وَسَطِ الْكَلَامِ."[53]

[53] مفاتيح الغيب: 28/55. 56

الخاتمة والنتائج المستخلصة:

نستخلص في نهاية هذا البحث عدّة ملاحظات، أوجزها في ثلاث:

۞ تثبت الإشارات المتناولة في دراسة حول مفهوم التناسب والتناسق والوحدة داخل النصّ القرآنيّ، أنّ قيمة هذا المبحث ونفاسته لاتكمنُ فقط في بيان الحكمة من ترتيب سوره وآياته، بل تتعدّى ذلك إلى تذوّق أسرار البلاغة وفنون البيان. فبيان الترابط الوثيق بين مختلف عناصر هذا النصّ يثبتُ بطريقة عقليّة لا تدع مجالا للشكّ، أنْ لا حضور للصدفة في تنسيق كلامه وترصيعه بأبهى الأساليب البلاغيّة، وأبلغ الطرائق البيانيّة، فلكلّ حرف أو اسم أو فعل، أو كناية أو استعارة أو تشبيه، أو طباق أو مقابلة أو التفات، أو تقديم أو تأخير، أو غير ذلك من أدوات الكلام موضعُها الذي لا يناسبُها غيره، ووظيفتها المعلومة في السياق والدلالة. وما على المحقّق إلّا محاولة سبر أغوارها ما استطاع إلى ذلك سبيلا.

۞ يمكن النظر إلى البحث في هذا العلم، على أنّه نوع من أرقى أنواع التدبّر، إذ يمثّل جهدا عقليّا تأمّليّا يتفحّص دقائق الذكر الحكيم، أملا في الفوز بما تيسّر من أنوار الفهم، وما قد يزيد عن منطوق النصّ من المعاني والدلالات، والروابط والعلاقات، خاصّة ما خفي منها. وكم أثلج صدري بعض الباحثين المسلمين المعاصرين الذين يعدّون دراسة تناسب الآيات والسور من أرقى صنوف التأمّل في كتاب الله تعالى، بل إنّ الأستاذ السبت اعتبره الباب الثالث من أبواب التدبّر، في بسطه الرائع من خلال كتابه الجديد بعنوان: "القواعد والأصول وتطبيقات التدبر" لهذا المفهوم.[54]

وهو علم اجتهاديّ توفيقي، فلا يرفقه أعلامه بالتقديس. وأرى أنّ الباحث فيه يجب أن يتحلّى بخصلة لازمة، وهي قبول اختلاف الطرق والمناهج التي يعتمدها المتصدّون للبحث فيه، وكذا النتائج التي يستخلصونها من بحوثهم. وبذلك أزعم أنّه يمكن أيضا لغير المسلمين، خاصّة من العلماء والباحثين، استخدام هذا العلم لتدبّر القرآن وإعادة النظر في بعض القضايا حوله، خاصّة منها ما يتعلّق بالتشكيك في إحكام ترتيبه، أو إتقان نظمه، أوتفرّد بلاغته، أي ما يندرج تحت مبحث الإعجاز. ولتُتْرك جانبا النظريّة ـ ولو إلى حين ـ اللتي انتشرتْ بين أغلبهم، أنّ مفهوم الإعجاز جاء متأخّرا، وأنّه من صنع أو اختراع العلماء والمفسرين المسلمين، فتلك فكرة قابلة لمناقشتها والاختلاف حولها ولإثبات تهافتها،

[54] القواعد والأصول وتطبيقات التدبر 93.119

ذلك أنّ حقيقة مظاهر هذا الإعجاز، أولى بالتمحيص والتحقيق. ويمثّل مفهوم التناسب القرآني مثالا فريدا على ذلك، فهو أولى بالنظر، وعبّر عنه المسلمون بطرق متباينة،

تأمّل هاتيْن الإشارتيْن من السيوطي وابن عطيّة في وجوه الإعجاز:

"الوجه الثالث من وجوه إعجازه:

حُسْن تأليفه، والتئام كلمه، فصاحتها، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادةَ العرب الذين هم فرسانُ الكلام وأربابُ هذا الشأن. فجاء نطقه العجيب، وأسلوبه الغريب مخالفاً لأساليب كلام العرب ومنهاج نظمها ونثرها الذي جاءت عليه، ووقفت عليه مقاطع آياته، وانتهت إليه فواصلُ كلماته، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له."

ثمّ يدعم السيوطي ذلك بقول ابن عطيّة الاندلسيّ: قال ابن عطيّة: الصحيح والذي عليه الجمهور والحذاق في وجوه إعجازه أنّه بِنَظْمِهِ وصحة معانيه وتوالي فصاحة ألفاظه، وذلك أن الله أحاط بكل شيء علماً، وأحاط بالكلام كلِّه علماً، فإذا ترتبَت اللفظة من القرآن علم بإحاطته أيَّ لفظة تصلح أن تلي الأولى وتبين المعنى بعد المعنى، ثم كذلك من أوّل القرآن إلى آخره." [55]

❁ ينطبق ما سبق في الإشارة الثانية على الباحثين المسلمين كذلك، فعلم التناسب يدعو كلّ متدبّر إلى الغوص في بحوره، وطلب قبس من نوره. ورغم تعدّد المؤلّفات والبحوث اللتي تهتمّ بهذا المبحث، فأرى أنّ الحاجة مازالت قائمة للتعريف به وتوضيح أثره في فهم القرآن، خاصّة فيما يتعلّق بعلاقاته المتشابكة وارتباطه الوثيق بعدد وافر من علوم القرآن والبلاغة، فضلا عن التعريف به في الأوساط العلميّة الغربيّة، وتأصيله كمبحث أساسيّ من المباحث القرآنيّة الحديثة، واتخاذه منهجا مستقلّا فيها. فمَثَل مَن تنكشف له بعض أسرار اتّساق القرآن وانسجامه، كمَثَل الذي يغوص في بحر، فيرى فيه ما لا يرى الورى من الأسرار، ويسبر ما في من أغوار.

[خُتِم بحمد الله]

[55] معترك الأقران 23/1

المصادر والمراجع:

ملاحظة: مرتبة أبجدياً حسب العناوين:

- **أسرار ترتيب القرآن**: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين **السيوطي** (المتوفى: 911هـ). الناشر: دار الفضيلة للنشر والتوزيع. عدد الأجزاء: 14
- **أضواء على علم المناسبة**: عبد الحكيم **الأنيس**، [مجلّة الأحمديّة، عدد 1432/11، ص 15. 70]
- **إعراب القرآن**: أبو جعفر **النَّحَّاس** أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: 338هـ). وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم. الناشر: منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت. الطبعة: الأولى، 1421 هـ
- **الاستشراق والمُسْتَشْرِقُونَ ما لهم وما عليهم**: المؤلف: مصطفى بن حسني **السباعي** (المتوفى: 1384هـ). الناشر: دار الوراق للنشر والتوزيع - المكتب الإسلامي.
- **البحر المحيط في التفسير**: **أبو حيان** محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (المتوفى: 745هـ). تحقيق : صدقي محمد جميل. الناشر: دار الفكر – بيروت. الطبعة: 1420 هـ
- **البرهان فى تناسب سور القرآن**: أحمد بن إبراهيم **بن الزبير** الثقفي **الغرناطي**، أبو جعفر (المتوفى: 708هـ). تحقيق: محمد شعباني. دار النشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية. المغرب. 1410 هـ - 1990 م. عدد الأجزاء: 1
- **البرهان في علوم القرآن**: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر **الزركشي** (المتوفى: 794هـ). تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم. الناشر: دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه. الطبعة: الأولى، 1376 هـ - 1957م. عدد الأجزاء: 4
- **التبيان في إعراب القرآن**: أبو البقاء عبد الله بن الحسين بن عبد الله **العكبري** (المتوفى : 616هـ). تحقيق : علي محمد البجاوي. الناشر : عيسى البابي الحلبي وشركاه. عدد الأجزاء : 2 (في ترقيم مسلسل واحد).
- **التحرير والتنوير**«تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد» :محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر **بن عاشور** التونسي (المتوفى : 1393هـ). الناشر : الدار التونسية للنشر – تونس. سنة النشر: 1984 هـ. عدد الأجزاء : 30 (والجزء رقم 8 في قسمين)
- **الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي**: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ). تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش. الناشر: دار الكتب المصرية – القاهرة. الطبعة: الثانية، 1384هـ - 1964 م. عدد الأجزاء: 20 جزءا (في 10 مجلدات).[الكتاب مرتبط بنسختين مصورتين،

إحداهما موافقة في ترقيم الصفحات (ط عالم الكتب)، والأخرى هي ط الرسالة بتحقيق الدكتور عبد الله بن عبد المحسن التركي.]

- **القواعد والأصول وتطبيقات التدبر**: د/ خالد بن عثمان **السبت**. الناشر: دار الحضارة للنشر والتوزيع. الطبعة: الأولى، 1437 هـ - 2016 م. عدد الصفحات: 241
- **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد **الزمخشري** جار الله (المتوفى: 538هـ). الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة - 1407 هـ. عدد الأجزاء: 4. الكتاب مذيل بحاشية (الانتصاف فيما تضمنه الكشاف) لابن المنير الإسكندري (ت 683) وتخريج أحاديث الكشاف للإمام الزيلعى]
- **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام **بن عطية الأندلسي** المحاربي (المتوفى: 542هـ). تحقيق : عبد السلام عبد الشافي محمد. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى - 1422 هـ
- **الموسوعة القرآنية**: إبراهيم بن إسماعيل **الأبياري** (المتوفى: 1414هـ). الناشر: مؤسسة سجل العرب. الطبعة: 1405 هـ

۞ **تفسير أبي السعود = إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود** العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: 982هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي الإسلامي – بيروت ، القاهرة. عدد الأجزاء: 2

۞ **تفسير الراغب الأصفهاني**: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف **بالراغب الأصفهاني** (المتوفى: 502هـ). [جزء 1] المقدمة وتفسير الفاتحة والبقرة. تحقيق ودراسة: د. محمد عبد العزيز بسيوني. الناشر: كلية الآداب - جامعة طنطا. الطبعة الأولى: 1420 هـ - 1999 م. عدد الأجزاء: 1. [جزء 2، 3:] من أول سورة آل عمران - وحتى الآية 113 من سورة النساء. تحقيق ودراسة: د. عادل بن علي الشِّدِي. دار النشر: دار الوطن – الرياض. الطبعة الأولى: 1424 هـ - 2003 م عدد الأجزاء: 2. [جزء 4، 5:] (من الآية 114 من سورة الطبعة الأولى: 1422 هـ - 2001 م.النساء - وحتى آخر سورة المائدة). تحقيق ودراسة: د. هند بنت محمد بن زاهد سردار. الناشر: كلية الدعوة وأصول الدين - جامعة أم القرى. عدد الأجزاء: 2

۞ **تفسير القرآن العظيم لابن أبي حاتم**: أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي **ابن أبي حاتم** (المتوفى: 327هـ). تحقيق : أسعد محمد الطيب. الناشر: مكتبة نزار مصطفى الباز - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثالثة - 1419 هـ [ترقيم الكتاب موافق للمطبوع، وهو ضمن خدمة مقارنة التفاسير]

۞ **تفسير القرآن العظيم:** أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ). تحقيق : سامي بن محمد سلامة. الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع. الطبعة: الثانية 1420هـ - 1999 م. عدد الأجزاء: 8

۞ **تفسير القرآن الكريم:** محمد أحمد إسماعيل **المقدم**. مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية. [الكتاب مرقم آليا، ورقم الجزء هو رقم الدرس - 204 درسا]

۞ **تفسير النسفي:** (مدارك التنزيل وحقائق التأويل): أبو البركات عبد الله بن أحمد بن محمود حافظ الدين النسفي (المتوفى: 710هـ). حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي. راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو. الناشر: دار الكلم الطيب، بيروت. الطبعة: الأولى، 1419 هـ - 1998 م. عدد الأجزاء: 3

۞ **تفسير مجاهد:** أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي القرشي المخزومي (المتوفى: 104هـ). تحقيق : الدكتور محمد عبد السلام أبو النيل. الناشر: دار الفكر الإسلامي

۞ **تنوير المقباس من تفسير ابن عباس:** يُنسب: **لعبد الله بن عباس** - رضي الله عنهما - (المتوفى: 68هـ). جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب **الفيروزآبادي** (المتوفى: 817هـ). الناشر: دار الكتب العلمية – لبنان. عدد الأجزاء: 1

۞ **جامع البيان في تأويل القرآن:** محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر **الطبري** (المتوفى: 310هـ). تحقيق: أحمد محمد شاكر. الناشر: مؤسسة الرسالة الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م. عدد الأجزاء: 24

۞ **جماليات المفردة القرآنية:** أحمد ياسوف. الناشر: دار المكتبي – دمشق. الطبعة: الثانية، 1419 هـ - 1999م. عدد الأجزاء: 1

۞ **دحض دعوى المستشرقين أنّ القرآن من عند النّبي صلّى الله عليه وسلم:** سعود بن عبد العزيز **الخلف**. الناشر: غراس للنشر والتوزيع. عدد الأجزاء: 1

۞ **دلائل الإعجاز في علم المعاني:** أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، **الجرجاني** الدار (المتوفى: 471هـ). المحقق: محمود محمد شاكر أبو فهر. الناشر: مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة. الطبعة: الثالثة 1413هـ - 1992م. عدد الأجزاء: 1

۞ **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني:** شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني **الألوسي** (المتوفى: 1270هـ). تحقيق : علي عبد الباري عطية. الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت. الطبعة: الأولى، 1415 هـ عدد الأجزاء: 16 (15 ومجلد فهارس).

۞ **مراصد المطالع في تناسب المقاطع والمطالع** - بحث في العلاقات بين مطالع سور القرآن وخواتيمها: عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين **السيوطي** (المتوفى: 911هـ). قرأه وتمّمه: د. عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر. الناشر: مكتبة دار المنهاج للنشر والتوزيع، الرياض - المملكة العربية السعودية. الطبعة: الأولى، 1426 هـ عدد الأجزاء: 1

- **معالم التنزيل في تفسير القرآن = تفسير البغوي**: محيي السنة ، أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء **البغوي** الشافعي (المتوفى : 510هـ). تحقيق : عبد الرزاق المهدي. الناشر : دار إحياء التراث العربي –بيروت. الطبعة : الأولى ، 1420 هـ عدد الأجزاء :5
1997 م. عدد الأجزاء: 8
- **معاني القرآن وإعرابه:** إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق **الزجّاج** (المتوفى: 311هـ). تحقيق : عبد الجليل عبده شلبي. الناشر: عالم الكتب – بيروت. الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م. عدد الأجزاء: 5
- **معاني القرآن:** أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي، **الفرّاء** (المتوفى: 207هـ). تحقيق : أحمد يوسف النجاتي / محمد علي النجار / عبد الفتاح إسماعيل الشلبي. الناشر: دار المصرية للتأليف والترجمة – مصر. الطبعة: الأولى.
- **معترك الأقران في إعجاز القرآن**، ويُسمَّى (إعجاز القرآن ومعترك الأقران): عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين **السيوطي** (المتوفى: 911هـ). دار النشر: دار الكتب العلمية - بيروت – لبنان. الطبعة: الأولى 1408 هـ - 1988 م. عدد الأجزاء: 3
- **مفاتيح الغيب = التفسير الكبير**: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي **الرازي** الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ). الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت. الطبعة: الثالثة - 1420 هـ
- **مفهوم التفسير والتأويل والاستنباط والتدبر والمفسر:** د. مساعد بن سليمان بن ناصر **الطيّار**. الناشر: دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية. الطبعة: الثانية، 1427 هـ عدد الأجزاء: 1
- **نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:** إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر **البقاعي** (المتوفى: 885هـ). الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة. عدد الأجزاء: 22
- **المدخل إلى علوم القرآن الكريم:** محمد فاروق النبهان. الناشر: دار عالم القرآن – حلب. الطبعة: الأولى، 1426 هـ - 2005 م. عدد الأجزاء: 1
- **النبأ العظيم**: نظرات جديدة في القرآن الكريم: محمد بن عبد الله **دراز** (المتوفى : 1377هـ). اعتنى به : أحمد مصطفى فضلية. قدم له : أ. د. عبد العظيم إبراهيم المطعني. الناشر : دار القلم للنشر والتوزيع. الطبعة : طبعة مزيدة ومحققة 1426هـ- 2005م. عدد الأجزاء : 1
- **لسان العرب:** محمد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين **ابن منظور** الأنصاري الرويفعي الإفريقي (المتوفى: 711هـ). الناشر: دار صادر – بيروت. الطبعة: الثالثة - 1414 هـ عدد الأجزاء: 15. [الكتاب مذيل بحواشي اليازجي وجماعة من اللغويين]
الحديثة، مصر. الطبعة: الأولى، 1410 هـ - 1989 م.. عدد الأجزاء: 1
الطبعة: الأولى، 1420 هـ - 2000 م. عدد الأجزاء: 24

روابط المواقع الالكترونية والبرامج المستخدمة:

- **ملتقى أهل التفسير:**

1. **تدبّر التدبّر: نايف الزهراني**، تاريخ الزيارة: 2018.04.12

https://vb.tafsir.net/tafsir12224/#.W_7YdttKjIV

2. **ملتقى تدبّر القرآن بين التأصيل والتطبيق**: تاريخ الزيارة: 2017.12.26

https://vb.tafsir.net/tafsir29508/#.W_8pWttKjIU

3. **علم المناسبات: عبد الرحمان الشهري**، تاريخ الزيارة: 2018.06.11

https://vb.tafsir.net/tafsir884/#.W_8qNttKjIU

- البيان القرآني: موقع العلاّمة فاضل صالح السامرائي، تاريخ الزيارة: 2018.10.10

http://albayanalqurany.com/clause/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B1%D9%82-%D8%A8%D9%8A%D9%86-%D8%A3%D8%AA%D9%89-%D9%88%D8%AC%D8%A7%D8%A1-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D9%82%D8%B1%D8%A2%D9%86-%D8%A7%D9%84%D9%83%D8%B1%D9%8A%D9%85-2/

البرامج:

- **المكتبة الشاملة: الإصدار 1**